خالد محمد خالد

وداعا.. عثمان!





دار المعارف

وداعاً .. عثمان !

خالد محمد خالد

وَدَاعاً .. عثمانْ !

الطبعة الثالثة



مراجع تاريخية

١ – البداية والنهاية	: ابن كثير
٢ – الإصابة فى تمييز الصحابة	: ابن حجر
٣ – السيرة النبوية	: ابن هشام
٤ – أسد الغابة	: ابن الأثير
٥ – الطبقات الكبرى	: ابن سعد
٦ – الرياض النضره	: المحب الطبرى
٧ – حلية الأولياء	: أبو نعيم الأصبهانى
٨ – تاريخ الخلفاء	: السيوطى
٩ – الأخبار الطوال	: الدّينَوِرى

فى هذا الكتاب

صفحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا كتاب عن «عثمان بن عفان» ثالث الخلفاء الراشدين . .

كتاب عن «النَّبأ العظيم» ، الذى طال اختلاف الناس فيه ، ولا يزالون مُختلفين . .

والنّهج الذى نقدم به اليوم حديثنا عن «عثمان» رضى الله عنه ، هو ذاتُ النهج الذى قدَّمنا به من قبل حديثنا عن [أبى بكر ، وعمر وعلَىّ ، ورجال حول الرسول] . .

وهو نهْجٌ لا يَدَعُنَا نَتَلَبَّثُ مع وقائع التاريخ ، إلا بالقدر الذى نُبصر به رُوح التاريخ . . ولا تشغلُنا الأحداث بزحامها عن تَتَبُّع «نَبْض» العظَمة والتفوق فى أولئك الرجال . . ! !

فَرُوح التاريخ ، وجوهر الشخصية ، يُشكّلان فى مُحاولتنا ، المادّة والموضوع . .

وفى صدق تاريخى ، لا تخدعه الأسطورة . .

وفى يقين فكرى ، لا تُضلِّله الشبْهة . .

وفى طُمأنينة نفسيَّة ، لا يَسْتخِفُّها الانفعال . . نمضى اليوم كما مضينا من قبل فى رسم صورة الشخصية من داخل عظمتها الباطِنَة ، ومواقفها الحاسمة . غير مُتكلِّفين موقفاً ، ولا مُتَخَفِّفين من تَبِعَة . .

* * *

والحقَّ أقول لكم : إننى حين صَحِبْتُ التاريخ فى مَراجعه . ، وأُمهاتِه لكى أدرس من جديد حياة « عثمان » دراسة تمكننى من رسم صورته وحقيقته ، لم أكن أحسب أن الله سبحانه سييسِّر مَسعاى وسبيلى على هذا النحو الذى صادفْتُه وصادفنى . . .

فالصورة التى فى أذهان الكثيرين منا عن عصر « عثمان » وخلافته تُوحى بأن الطريق إلى ذلك العصر وَعْر وشاقّ . . كما توحى بأن ذلك العصر بتناقُضاته ، ومشكلاته ، وفِتَنِه ، إنما يُسْعِف المؤرخ الذى يُسَجِّل الأحداث ولا يزيد . .

لكنه لا يسعف « الرَّسام » الذى يريد أن يرسم لوحة تعكس دلالَتَها الخَيِّرة على عالم القِيمِ والقُدوة . .

ألاَ ما أكذَبها مِن صُورة . . وما أظْلَمها لرجل ، ولعصْر ، طالما أنِسَت بهما العظمة ، وتفجَّر منهما العَطاء . . ! !

* * *

إن الذين تتخبَّطهم الشكوك والتساؤُلات حول « عثمان وعصره » . فيسارعون أو يُسارع بعضهم إلى « الخليفة العظيم » بأوزار لم يَحملها . .

إنما ضَنَّتْ عليهم الحقيقة بنفسها ؛ لأنهم ذهبوا يقيسون ذلك العصر بغير مقاييسه ، بل بضِدِّ مقاييسِه . . ! !

لقد عَمدوا إلى مجتمع قام منذ ألف وأربعمائة عام . له ظروفه وقيمه . . ثم زَجُّوا به فى مختَبرَات حديثة من المنطق ، والعلم ، وتفسير التاريخ . . مُختبرات قد تقدر على تفسير بعض أحداث ذلك العصر ، لكنها مهما يكن حِذقُها ومهارتُها لا تَملك حق الحكم النهائى عليه ، بل لا تستطيع استخلاص حقائقه البعيدة .

* * *

لقد كتب على « الخليفة عثمان » أن يحمل مسئولية الحكم فى ظروف ليس لها فى جميع التاريخ نظير . .

وقبل أن أُتَّهمَ بالمبالغة فى هذا التعبير ، أُسارع فأقول : إنه حمل تلك المسئولية الجسيمة فى فترة من الزمان ، كانت خِتاماً لـ « عصْرٍ نبوِيّ » بكل ما فيه من وَرَع ، وصمود ، وإخبات . . وبدايةً لـ « عصرٍ امبراطوريّ » ، بكل ما يحمل من مباهج ، ومخاطر ، ومُغريات . . ! !

صحيح أن الفتوحات الهائلة ، كانت قد أرستْ قواعدها فى عهد أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » . . وأخذت دولة الإسلام ، ذلك الشَّكل السياسى الذى يُسمَّى بالامبراطورية ، وإن لم يَرَهَا المسلمون كذلك .

بَيْدَ أَنَّ « أمير المؤمنين عمر » أَلقَى بكل عَزمه وثِقَله فى الكِفَّة اليُمْنَى من الميزان ، حتى يظل « عصر النُّبوَّة » قائماً وسائداً ، بكل آدابه ،

وتقاليده ، وتَبَتُّله ، ووَرعه ، متوسِّلا بذلك القَمْع الرَّهبانى الذى فَطَم به الأنفس ، ومنَعها هواها . . ! !

ولم يكن من طبائع الأشياء أن يَدوم هذا النُّسُك . .

فالفتوحات تزخر بتناقضات يُنادى بعضها بعضاً . . ورياح التغيير المحتوم تسوق دولة الإسلام ومجتمعه إلى مطالع جديدة ، لا مفرَّ من لُقْيَاها بكل ما فيها من صفاء ، وكل ما فيها من غُيوم . .

وكان اغتيال « الخليفة عمر » إشارة البَدْء بمقدم عصر جديد . .

وهو عصر لن يتخلَّى المسلمون فيه عن رايتهم ، ولا عن مبادئهم ، لكن ستزْحَمُهم فيه عَلاقاتٌ جديدة ، وتقاليد طارئة ، ومشكلات وافِدة . . ستفرض الكثير من إرادتها على رتابَةِ الحياة ، ومنهج الدولة ، وتطلُّعات المجتمع . .

* * *

وفى هذه الفترة الحرجة ، والسنوات الصَّعْبة ، دعَت المقادير « عثمان » ليحمل المسئولية الرهيبة . . مسئولية الإبقاء على رُوح « عصر النبوة » والتفاعل مع « عصر الامبراطورية » . .

فهل وجد سبيله إلى ذلك . . ؟ ؟

نَعم . . وبملء اليقين ، نَعم . . وستحدثنا عن ذلك إن شاء الله حديثاً مُفِيضاً ، صفحات هذا الكتاب .

سنرى من أى طراز جليل ، كانت شخصية « عثمان » . .

ومن أى طراز كانت خلافته ، وكان حكمه . . وما الذى أغرى

الأزمات الضارية بأيَّامه وعهده . . وهل ذهب شهيد فضائله ؟ أو ضحية أخطائه . . ؟

سنرى رجلا آخر من أصحاب « محمد » العظام ، حمل مسئوليته فى عزم مجيد ورشيد . . وحين لم يجد ما يحمى به مسئولياته سوى حياته ، جاد بها فى سماح منقطع النظير . . ! !

* * *

وذات يوم . . وقد ضاقت الدنيا بصمُوده ، امْتطَتْ روحه زوْرَق الأبدية ، مُبْحِرَةً إلى ربها الوَدود المجيد ، فوق ثَبَجٍ من دمائه الغالية الزَّكية . .

* * *

ألاَ بُورِكَ الجسَد المثْخَن . .
وبُورِكتْ روحه النَّاجية . .

* * *

وياشهيدَ فضائلك ، واقْتِناعِك . . سلاماً ، ووَداعاً ! !

الفصل الأوّل

أوّلُ المُهاجِرين

في الساعات **الأولى** التالية لشروق فجر الرسالة كان هناك نفرٌ كرام من صَفوة البشر ، وضَع القدر عينه عليهم ليصطنع منهم الرَّعيلَ الأول في الموكب الباهر الهادر الطويل الذى سيحمل عَبْر القرون كلمة الدين إلى الدنيا . . والذى سيحمل نور الله وهُداه إلى الخلائق المزدحمة في تِيهٍ ما له أوّل ، ولا آخر ، وما له من قَرار . . ! ! !

وحين تتقدم المقادير بنفسها لتختار وتصطفى ؛ فإنها تدَعُ العقول في حَيْرة من طريقتها ونهجها في الاختيار . . !

فني هذا المقام الذى نحن بصَدَدِه وسبيله ،نجدها تختار السيد المتألق في جبين قومه ، المتربع فوق ذُرَى المجد من عشائره ، إلى جوار العبد الرقيق الذى يُباع وُيشتَرَى ، ولا يَملك من دنياه وفى دنياه سوى السلاسل والأغلال . . !

ونجدها تختار الثرىّ العريض الثراء ، إلى جوار الفقير المعدِم السَّغْبان . . !

وتختار الأيِّدَ ، الشديد ، القوى ، الذى يصرع أشداء العرب فى مهرجانات « عُكاظ » ؛ لتضعه إلى جوار الضعيف المعروق الضّامر الذى تُرجِفُ ساقيه النسماتُ الوادِعات . . !

وتختار الداهية الذى يتفجّر ذكاء ، وحيلة ، واقتداراً – إلى جوار الغِرِّ الكريم الذى لا تجربة له ، ولا حِيلَة مَعه . . !

* * *

من الشّتّاتِ المتباين ، ودُنَمَا اعتبار لخصائص معينة ، أو روابط خاصة ، تَقدم القدر نحو الجموع العريضة واختار منها أبطال المسيرة الأولى للدين الجديد الذى أذِنَ الله لرسوله المصطفى « محمد » عليه الصلاة والسلام أن يُعلن نداءه . . ويرفع لواءه .

ومن هذا الرَّعيل المتباينة صِفاتُه ، المختلفة طباعه ودرجاته ، سيصوغ الإسلام معجزته الكبرى .

سيجعل من بعض أشراف قريش وسادتها أمثال أبى بكر . وعثمان ، وعبد الرحمن بن عوف ، أنداداً وإخوة لبعض عبيدها ومستضعفيها ، أمثال صُهَيب ، وبلال ، وعمّار . . ! !

سيخلق من التفاوُت وحدة . . ومن التباين آصِرةً ورَحِماً .

تُرى ، ألم يكن للقدر وهو يختار أبطاله هؤلاء معياراً مُشتركاً ، يلتقى حوله ويتوحَّد فيه هذا الشَّتات المتبايِن من الخصائص . والمنازِل والقُدْرات .

بَلى ، كان ثَمَّةَ نبراس مشترك لا ريب . . وما إدراكه بعزيز ! !

فإذا كان القرآن العظيم يخبرنا أن الله « أعلمُ حيث يَجْعل رسالتَه » ؛ فإنه سبحانه يعلم كذلك كيف يَختار لرسوله حَوارِيّيه وبِطانَتَه .

وإذا كان الرسول – أيٌّ رسول – إنما يختاره الله ليوكِّد وجودُه وسيرتُه بين الناس تفوُّقَ الحق ، والخير ، والفضيلة ، وليَهَبَ حياته كلها فى سماحٍ مطلق لنصرة الحق ، والخير ، والفضيلة – فلا بد لهذا الرسول أن يكون بنعمة ربه ، وبفضائل نفسه ، وبعزائم روحه فى مستوى دَوْره ورسالته وقُدوته .

وإذا كان الرسول – أيٌّ رسول – لن يعمل وحده بل لا بد له من أنصار يؤمنون به ويؤمنون معه ؛ فلا بد أن يكون هؤلاء الأنصار فى مستوى المهمة الجليلة التى سينهضون بأعبائها .

وسواءٌ عليهم أن يجيئوا من صفوف الأشراف والسادة والأثرياء . . أو يجيئوا من صفوف البُسَطاء والعبيد وذوى الخَصاصَةِ والإملاق .

إن القدر وهو يختار أبطاله من الجموع المزدحمة ، إنما يضع كلتا عينيه على « الشخصية الباطنة » لكل فرد ، حيث تكمن حقيقته ، وتبدو فى غير زخرف ، ولا زيف ، ولا تنكُّر .

وعلى الشخصيات السَّوِيَّة التى يؤهلها طهرها ونبلها واستقامتها للاصطفاء ، كان القدر يضع وِسامَه ، معلناً بذلك اختيار البطل لدوره .

على هذا المستوى ، وبهذا النهج ، تقدمت مقادير الإسلام لتختار له الجديرين بحمل دعوته فى فَجره الغَضّ ، وأيامه الباكِرَة .

ومن هؤلاء المصْطَفَيْن ، كان « عثمان » . .

و « عثمان » رضى الله عنه وأرضاه ، رجل نادته الأقدار ودعَتْه من بين صفوف العِلْية والصّفوة .. عِلْيَةِ قريش ، وصفوة العرب .

ليأخذ مكانه مُبكِّراً ، بين الأوائل المبَكّرين فى موكب الهدَى ودينِ الحق .

وحين تَلقَّى إشارة القدَر ليتسلم دَوْرَه ، لم يتردد لحظة ..

ومن تحت سُقُفِه المرفوعة ، ومن فوق فُرُشِه الموضوعة ، ومن بين مناعمه ومطاعمه ودنياه الحافلة العريضة ، خرج حاملا أعباء دَورِه الجديد ، مستقبلاً حياة المتاعب والتضحية والعطاء .

ألاَ إنّ أولىَ الألقاب به ، وأصدقها فى تصوير حقيقته لهو لقب « المهاجر » ...

فَمِن عَلْيائه وثرائه ، ومن جاهه العريض ، ونعمائه الوارفة خرج إلى دعوة الله ودعوة رسوله .. ومتى .. ؟ ليس فى أيام عافيتها وانتصارها .. ! بل فى ساعاتها الأولى ، وهى مقبلة بأتباعها وأنصارها على العسرة والضيق ، وعلى كل ألوان العسف والاضطهاد .

وإذا كان الاضطهاد والتعذيب ، يؤذيان « الرجل العادى » فى جَسده ؛ فإنهما يلحقان برجل « الصفوة » فوق أذى الجسد ، أذى آخر أشدَّ وأوجع . ذلكم هو الأذى الذى يصيب كرامته ومكانته ..

و « عثمان » كان واحداً من رجال الصفوة .. لا تسمح مكانته فى قومه بأن تُنال كرامته بقول أو عمل يؤذيانها أو يَخدشانها .

فما بالُه يأخذ مكانه مع السبعة الأوائل الذين أحاطوا برسول الله

وأخذوا مكانهم إلى جواره ، وهو يعلم ما سيحيق به وبإخوانه من كيد ، وضُرّ ، وبلاء . . ؟؟

إن « طبيعة » المهاجر ، بل إن « ضمير » المهاجر ، كان يدفع خُطاه ويقود حياته بعيداً عن أمجاد قريش ، ومناعم العيش ، إلى شظف التضحية وشرَفِ البذل تحت لواء الهدى والرحمة والنور الذى رفعه بيمينه الباسلة القادرة « محمد رسول الله » صلى الله عليه وعلى آله وصحابته .

ونحن نقول : « ضمير المهاجر » ؛ لأن الهجرة لم تكن بالنسبة لعثمانَ مجَرد سفر ، وانتقالٍ من بلد إلى بلد . . بل كانت أبعد من ذلك غَوْراً وُعمقاً . .

لقد كانت سفَرَ روح ونفس وحياة ، قبل أن تكون مُجرّد خُطًى فوق الرمال . .

لقد كانت « عُبوراً » لتُخوم الذات وحدود المصير . . قبل أن تكون « عبوراً » لتُخوم جغرافية ، وحدود إقليمية . .

لقد كانت « تنازُلاً » كاملا عن حياة حافلة عريضة ، وادعة ، مريحة . . « واستقبالا » لحياة أخرى ، لا يبدو من عاجل أمرها على الأقل إلا أنها حياةُ كَدٍّ ، وبذل ، وتضحية ، وعَناء . .

وإقدامُ رجل فى مثل مكانة « عثمان » على هذا النوع من « المقايَضة » لا يمكن أن يكون إلا ثمرةً حلوة مجيدة ، لضميرٍ حر شريف ، يدفع صاحبه لهذا الطراز من الهجرة العميقة الفاصلة .

ولعلّنا نستشرف هذا المعنى كله من الوصف الذى خلعَه الرسول

الكريم على صاحبه « عثمان » رضى الله عنه حين نعته بـ [أول المهاجرين إلى الله بعد نبي الله لوط عليه السلام] . .

أجَل . . لقد خلع الرسول عليه هذا الوصف حين أمره بالهجرة إلى الحبشة ومعه زوجُه « رُقَيَّة » .

على أننا لن نقف طويلا أمام هجرته إلى الحبشة فى المرة الأولى ، وهجرته إليها فى المرة الثانية ؛ لأن الذى سيشغلنا فى « هجرة عثمان » هو « جوهــر » الهجرة و « ضميرها » . . وليس « شكلها » ولا « جغرافيتها » .

إننى كما قلت من قبل فى كتاب « رجال حول الرسول » لا تشغلنا الوقائع والأحداث إلا بقدر ما نَسْتَشِفُّ روحَها الحىّ ، وجوهرها الكامن . . وإلا بقدر ما نُبصر « العظمةَ الإنسانية » من خلال الوقائع والأحداث .

و « عثمان » المهاجر . . المهاجر بقلبه ، وبروحه ، وبضميره ، هو موضوع حديثنا فى هذا الفصل الأول من الكتاب . . مُهتدين إلى تلَمُّس عظمة الهجرة فيه بِمَسْلكِه من اللحظة التى استقبل فيها الإسلام جذلانَ صادقاً ، إلى اللحظة التى لقى فيها ربه صابراً مُحْتسِباً .

أجَل . . إلى آخر لحظات عمره ، سنظل نرى « عظمة المهاجر » فى حياة « عثمان » .

وقد يبدو فى هذه العبارة شيء من المبالغة عند الذين يقرءون حياة « عثمان » من آخرها . . ويظنون – مخطئين – أن ذلك القِسْم الأخير من حياته ، قد أصاب سابقَته بالأذى والتشويه . . ! !

أولئك قوم يبخسون الفضيلة قدرها حين يظنون أن الخطأ أقوى منها . . ! !

لا . . إن الفضيلة أقوى من الخطأ ، والإيمان أقوى من الزَّلَل . . وإن الخطأ – مهما يكن شأنه – لا يستطيع أن يقهر عظمة الفضيلة ، ولا أن يطفئ نورها ، ويردَّ روحها الحيَّ تُراباً فى تُراب . .

ولسوف نلتقى فى السنوات الأخيرة لخلافة عثمان رضى الله عنه ببعض التصرفات التى كشفت نتائجها عن حاجاتها إلى مزيد من الصواب ، ولكن هل كانت هذه الأخطاء وليدةَ تنكر « عثمان » لمبادئه التى قام عليها إيمانه واقتناعه وفضائله . . ؟ أعنى هل كانت تحدِّياً لله ، ولرسوله ، ولدينه . . ؟

إن أَلَدَّ خصوم « عثمان » لم يستطع أن يُقنع نفسه بهذا الاتهام .

إذن ، ماذا كانت . . ؟

كانت ثمرة اجتهاد من الخليفة لم تُواتِه الحظوظ الوافية من رؤية الصواب .

وكانت ثمرة ظروف عارمة غَطَّت الدولة الجديدة المتَّسعة ، وفرضت عليها طُرُزاً جديدة من العلاقات والمشاكل ، ومن العِلَل والنتائج . . . ! !

وإلى أن يجيء أوان مواجهة هذه الساعات الحرجة فى تاريخ الخليفة والإسلام ، دعونا نَعُدْ إلى موضوعنا الماثل حول « عثمان » المهاجر . . بل « عثمان » أول المهاجرين . .

* * *

إن هجرته إلى الله طوال سِنِي حياته ترتبط ارتباطاً وثيقاً بإسلامه.

والهجرة والإسلام ، يرتبطان كلاهما بشخصيته الباطنة وتركيبه النفسي .

وفي شخصيته الباطنة هذه نلتقي بخُلُقين يفوقان بقية فضائله وأخلاقه في السيطرة على نفسه والأخذ بزمامِه . . هذان الخُلقان هما : السماحة ، والحياء . .

ووراء كل المآثر التي تُحسبُ له . . وجميع الأخطاء التي تحسب عليه . . نجد هذين الخُلُقَين يحملان مسئولية المآثر والأخطاء . . !

ولنبدأ بإسلامه . .

لقد جاء إسلامه سماحة وحياء . . لا حياء من أصدقاء مقربين ، بل حياء من الله الذى كان يرى آيات وجوده تلمع فى وجدانه وتهز مشاعره . . وحياء من رسوله الذى كانت آيات صدقه تملأ الأنفس الصافية تقبُّلا ويقيناً .

ورجل مثل « عثمان » يقود « الحياء » كل تفكيره وكل تصرفاته ، لا يستطيع أبداً أن يهرب من اقتناعه .

إنه ليخجل أمام نفسه خجلاً مُزلزلا ، إن هو زيَّف اقتناعه أو تنازل عنه .

هكذا نراه ساعة إسلامه . . وهكذا سنراه عندما يحاصره الثوار يطلبون رأسه وحياته وهو قادر على صَرْفهم وفَلِّ بأسهم بوسيلة من وسائل شَتَّى كان يملكها جميعاً . . ولكنه وهو ابن الثمانين يرفض النجاة بوسيلة لم يكن لها فى دائرة اقتناعه مكان . . ! !

* * *

ساعة إسلامه ، كانت السماحة ، وكان الحياء يقودان خُطاه الوديعة الواثقة إلى رسول الله فى صحبة « أبى بكر » رضى الله عنه . حيث وضع يمينه فى يمين الرسول ، وضمَّخها ببيعة صادقة ومؤمنة . .

وكان إسلامه وديعاً غضاً ، كأنفاس الزهر فى فَجر الربيع ! !

فلم يكد « الصدِّيق أبو بكرْ » يهمس فى أذنه بنبأ الدعوة الجديدة التى يبلغها « الرسول » عن ربه حتى انفتح قلب الرجل السمح الحَيِىّ عن آخره .

لم يطلب مهلة للتفكير والرَّوِية ، فقد كان وجدانه المستقيم يدرك عبث الحياة الدينية التى يحياها قومه . . كما كان يعرف المستوى الرفيع الجليل الذى بلغه « محمد » فى صدق نفسه ، وصدق حديثه ، وصدق رُؤاه . .

كان « محمد » حتى قبل أن يكون رسولا يملأ الأفئدة الذكية الصافية روعة وتأثيراً . . وكان لعثمان فؤاد من هذا الطراز ، يحمل لـ « محمد » أروع الصور وأبهاها . حتى لقد انعكس هذا الإعجاب بل هذا الإيمان بـ « محمد » فى رؤيا رآها « عثمان » ذات يوم وهو قادم من الشام . . حين جلس يَقِيل فى مكان ظليل من « مُعان والزرقاء » وغلبه النوم هو ورفاقه ، فإذا به يسمع فى حلمه منادياً ينادى النائمين أنْ هُبُّوا أيقاظاً ؛ فإن « أحمد » قد خرج بمكة . . ! !

كان وجدانه إذن مُهيَّأً لانتظار المنقِذ ، ولم يكن بمكة كلها من تمنحه فضائله هذه المكانة بحق مثل « محمد بن عبد الله بن عبد المطَّلب » . .

أفينكُص عثمان على عقبيه ، وقد جاءته البشرى بظهور المنقذ والنبيّ .

وأين يذهب إذن من حيائه . . ؟ ؛

أفيستسلم عثمان للتردد ويطلب من نفسه لنفسه مهلة للتفكير والتشاوُر ؟

وأين يذهب إذن من سماحته . . ؟ !

إن الحياء ليذوده عن التردد

وإن السماحة لتزوده عن الإرجاء

والحياء والسماحة عنده وفيه ، لم يكونا مجرد خُلُقَيْن ، وفضيلتين ، بل كانا « طاقة هائلة » تسيطر على شخصيته كلها ، وتأخذ ببقية فضائله إلى طريقها . .

لقد بلغ بسماحته مستوى قياسياً ، لم ينهض إليه سواه . . حتى هتف الرسول يوماً أمام مشهد من مشاهد هذه السماحة الباهرة قائلا :

« ما ضَرَّ عثمان ما صنع بعد اليوم . اللهم ارْضَ عن عثمان ؛ فإني عنه راض » ! !

وإلى مثل هذا المستوى بلغ حياؤه ، حتى زكاه الرسول قائلا :

« أصْدَقُ أمَّتي حياءً ، عثمان » ! !

بل إن ثمَّةَ واقِعة تُرينا أكثر من سواها ، كيف كان حياء « عثمان » عظيماً ، والواقعة ترويها لنا أم المؤمنين « عائشة » رضى الله عنها ، فتخبرنا أن « أبا بكر » استأذن يوماً على رسول الله وكان الرسول مضطجعاً وقد

انحسر جلبابه عن إحدى ساقيه ، فأذن لأبى بكر فدخل ، وأجرى مع الرسول حديثاً ثم انصرف . .

وبعد قليل جاء عمر فاستأذن له ، ومكث مع الرسول بعض الوقت ثم مضى . .

وصادف أن جاء بعدهما عثمان ، فاستأذَن . . وإذا الرسول يتهيأ لمقدمه فيجلس بعد أن كان مضطجعاً ، ويُسْبل جلبابه فوق ساقِه المكشوفة ، ويقضى عثمان معه بعض الوقت ثم ينصرف .

وبُعَيْد انصرافه – تسأل عائشة الرسول عليه السلام قائلة : [يا رسول الله . لم أَرَكَ تهيأت لأبى بكر ولا لعمر كما تهيأت لعثمان] . . ؟

فيجيبها الرسول :

« إن عثمان رجل حَيِىٌّ ، ولو أذِنْتُ
له وأنا مضطجع لاستحيا أن يدخل ، ولرجَع
دون أن أقضى له الحاجة التى جاء من أجلها
يا عائشة : ألاَ أستَحى من رجل
تستحى منه الملائكة » . . ؟ ! !

إن هذه العبارة وحدها [رجل تستحى منه الملائكة] تصور لنا كل أبعاد هذا الحياء الذى كان يتمتع به « عثمان » . .

هذا الحياء الذى كان أصيلا ممعناً فى الأصالة . . والذى كان دائماً ، ممعناً فى الديمُومة . .

لم يَغب عن حياة صاحبه لحظة من ليل أو مِن نهار . . فلا يُرى « عثمان » إلا وحياؤه معه .

ودائماً كان الرسول عليه السلام يشيد بهذا الحياء كأنما يرفعه قدوة ونبراساً . .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« أرحَمُ أمــتى أبو بكـــر . . »
« وأشـــدُّها فى دين الله عمـــر . . »
« وأشـــدُّها حيـــاءً عثمان . . »

سماحته إذن وحياؤه ، حملاه كما قلنا فى سهولة ويُسر ، وفى غبطة ويقين ، إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث بايعه على الدين الحق ، وعلى كل ما يفرضه الدين من تَبِعات وواجبات .

ولقد كانت « الهجرة » أول واجب يفرضه هذا الدين . . ولا نعنى الهجرة بمعناها الجغرافى إلى الحبشة . . ثم إلى المدينة . . بل نعنى الهجرة بمعناها الروحى . . معناها العميم والعميق . . الهجرة من حياة ، إلى حياة . . ومن وُجود ، إلى وجود ، . . الهجرة التى تعنى التنازُل عن القديم بكل مقدساته وأمجاده . ، ، والسفر إلى الله بزادٍ جديد . . ! !

فَليحمل المهاجر إذن إيمانه ، وليَمض على بركة الله .

* * *

قلنا إن إسلام « عثمان » كان مبكراً ، فهو أحد الخمسة ، أو السبعة الأوائل الذين سبقُوا إلى الإسلام . وكان الرسول يومئذ يدعو إلى الله فى إسرار وخُفْيَة . . وحتى « دار الأرقم » التى كان يلتقى فيها بأصحابه مُستَخفين من قريش لم تكن قد وُجدتْ بعد ، وهكذا نزل « عثمان » إلى ميدان الدعوة بكل مخاطرها فى وقت تَندُر فيه النصرة ، ويعزُّ النصير . .

وهذا أول منازل هجرته .

لقد ترك حياته المستقرة الممتلئة الآمنة ، إلى فراغ مجهول تتهدده المحاذر والأخطار . . ! !

ولقد وضع خُطاه على دَربٍ غير مطروق ، تاركاً النَدِىَّ الذى كان يموج بالصُّحبة المؤنسة والحياة المرِحَة الحافلة . . ! !

ولا يطول به الوقت ، حتى تكون قريش قد شحذت أنيابها ، وراحت أحقادها تتلمَّظ بهذه العشيرة المؤمنة التى يقودها رسولها فى طريق الهدى والنور .

ويتلقى « عثمان بن عفّان » رضى الله عنه من تلك الأحقاد الضارية ما يُضاهى مكانته السالفة فى قومه ، ويتولى أمر تعذيبه عمه .
– الحكَمُ بن أبى العاص – فيوثقُه بالحبال وبالسلاسل ، ويصرخ فى وجهه :

« أترغَبُ عن مِلَّة آبائك إلى دين
مُحْدَث . . ؟ ؟ والله لا أحُلُّ وثاقك
أبداً حتى تدعَ ما أنت عليه من هذا
الدين » . .

ويجيبه « عثمان » فى إصرار « المهاجر » الذى عرف طريق الله ، وثبّت فوق مشارفه خُطاه . .

« واللهِ ، لا أدع دين الله أبداً ، ولا
أفارقه » . . ! !

ويُوالى عمُّه تعذيبه . .

ويُوالى « عثمان » إصراره . .

وتحاصره قريش كلها بازدراء مصطنع ، آملَةً أن تُذل كبرياءه ، وتهز كرامته . . لكن المهاجِر إلى الله كان قد نبذَ وراءه عالَمهم كله بما فيه من غرور وباطل . . والكرامةُ التى تستمد زهْوَها من الضلال لم تعد هى الكرامة التى يحملها الآن بعد أن آمن واهْتدَى .

إن الكرامة التى منحه الإيمان إياها كرامةٌ أخرى لا تستطيع قريش ، بل لا يستطيع العالم كله أن ينال منها منالا . .

إنها كرامةٌ لا ينال منها سوى النكوص عن الدين الحق ، أو التفريط فيه، أو الهروب من مسئولياته الثقال . .

وهكذا صمد « عثمان » للأذى . .

ونمت أعداد المسلمين الذين دخلوا فى دين الله ، وتضرمت نيران قريش ، وأوغَلَت فى تعذيبها واضطهادها .

ورأى الرسول الرحيم ألاّ قِبَلَ لأكثر أصحابه بهذا الأذَى ، فأمرهم بالهجرة إلى الحبشة ، إذ كان على رأسها يومئذ ملك عادل ، يُنشَد الأمْن فى رحابه ، والعافية فى جواره .

وكان « عثمان » أول مهاجر إليها ، ومعه زوجته « رقَية » بنت رسول الله ، وكان الرسول قد زوَّجها له بعد إسلامه .

ووقف الرسول يودعهما بنظراته الحانية وقلبه الودود ، ويقول :

« إنهما لأوَّلُ من هاجر
إلى الله ، بعد نبي الله لوط »

* * *

كانت الهجرة تصهر شمائل عثمان وتزيدها فاعلِيَّة وألقًا .

وكان إدراكه لمغزاها الحق ، باعتبارها هجرة روح ، قبل أن تكون هجرة مكان . . كان هذا الإدراك يجعل إيمانه فى حالة صَحْو دائم وتَلْبية سريعة .

وإنه ليعود إلى مكة . . ثم يهاجر إلى المدينة . . وفى كل زمان ومكان يحتويه ، تزداد روحه المؤمنة تعلقاً بالهجرة فى أعمق مضامينها وأسمى مفاهيمها .

كانت كلمات الرسول التى وصَفَتْه بأنه « أول مهاجر إلى الله » تهزُّ أشواقه إلى الله ، وتشحذ تصميمه على أن يحيا دائماً فى مستوى هذا الوصف وهذا التكريم .

ولقد نجح وظفر تصميمه بانتصار عظيم .

عندما حاصره الثوار وهو خليفة ، يريدون عزله أو اغتياله . تقدم إليه المغيرة بن شعبة بهذا الرأى وهذه المشورة :

« يا أمير المؤمنين ، لقد نزل بك ما ترى . .
وإنى أُشير عليك بثلاث ، اخترْ إحداهُن . .
« إما أن تخرج فتقاتلَهم ، فإن معك قوة وعدَداً . وأنت على الحق وهم على الباطل . .
« وإما أن تفتح لك من خلف الدار باباً تخرج منه فى غفـــلة منهم حيث تحملك رواحلك إلى مكة ؛ فإنهم لن يستحلوا دمك وأنت بها . .

« وإما أن تلحق بالشــام : فإن بهــا
معــاوية . . » .

ويجيب الخليفة العظيم بكلمات لا نلمح فيها دهاء ولا مُناورة ، ولا حرصاً على الحياة . .

إنما نلمح فيها « ضمير المهاجر » وخلقه وتصميمه .

قال رضى الله عنه مجيبًا صاحبه :

« أمَّا أن أخرج فأقاتلهم ، فوالله لَن أكون
أول من يخلُفُ رسول الله فى أمته بسَفْك
الدماء . .

« وأما خروجى إلى مكة ، فإنى سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول يوماً : يُلْحَدُ
رجل من قريش بمكة ، يكون عليه نصف
عذاب العالَم . . ولن أكون هذا الرجل . .

« وأما خروجى إلى الشام لأن فيها معاوية ،
فلا والله . . ولَن أُفارق دار هجــرتى
ومجاورة رسول الله ما حييت . . »

أية روعة ؟؟ وأىُّ جلال . . ؟؟

رجل يحيط به ثوار مسلحون يريدون رأسه ، وأمامَهُ فُرص النجاة والخلاص ، ثم يرفضها جميعاً لأنهــا ستنال من كرامة هجرته وثوابها . . ؟؟ ! !

وفى أية سِنٍّ كان ، وهو يحمل هذا الولاء الفَتِيَّ الشاب للهجرة ولحقِّها عليه . . ؟ ؟ فى سِنٍّ الثمانين . . ! !

إنه يرفض أى نقض شكلى أو موضوعى للهجرة .

ومغادرتُه المدينة التى عاش ومات بها رسوله الحبيب وصاحباه أبو بكر وعمر ، نقض للهجرة يرفضه ويأباه ، ولو كان ثمن الرفض حياته . . كما أن خَوْضَ معركة مسلحة ضد الثوار الذين هم برغم تمردهم الرجيم مسلمون ومُنتَمون إلى دينه وعقيدته ، نقْض آخر للهجرة . يرفضه كذلك ويأباه، ولو كان ثمن الرفض حياته . .

• ولمن شاء أن يختلف معه فى الرأى . . ولكن علينا أولا أن يكون لدينا تصوُّر كاف لما كانت تعنيه كلمة « مهاجر » بالنسبة لعثمان . . ! !

إنهـــا تعنى ما صنَعه تماماً . . شىء أثمن من الأمن ، وأغلى من الحيـــاة ! !

لقد نفذ بصدق ضميره وبإخلاص قلبه إلى جوهر الإسلام فعرفه معرفة اليقين .

عرف أن الإسلام فى جوهره هجرة كاملة إلى الله .

ولا ينبغى أن يكون للجاه ، ولا للمال ، ولا للحياة نفسها سلطان – أىُّ سلطان – على ضمير المهاجر وروحه الغلاّب .

ولقد تنازل « عثمان » لإسلامه ولهجرته عن جاهه ، وعن ماله ، وأخيراً عن حياته ، فى سماحٍ منقطع النظير . .

ولو رأيناه وهو يعطى أمواله بغير حساب للدعوة التى آمن بها وحمل مع المؤمنين لواءها ، لرأينا رجلا من طراز فريد .

لقد كان يبدو بعطائه وبسخائه ، وكأنه المموِّل الوحيد للأمة الناشئة الجديدة .

ولو أردنا أن نتعرف إلى مسلم هاجر من دنياه ومن أمواله وثرائه إلى البذْل العريض ، والعطاء المفيض ، لعزَّ علينا أن نجد لعثمان فى هذا المجال نظيراً . .

* * *

* عندما هاجر الرسول عليه السلام وأصحابه إلى المدينة لم يكادوا يستقرون بها حتى فاجأتهم مشكلة الماء ، وكان بها عَيْن تفيض بماء عذْبٍ طيب المذاق . . وتُدْعَى « بئر رومة » ويملكها يهودى يبيع ملء القربة بمُدّ . .

وتمنَّى رسول الله لو يجد من بين أصحابه من يشتريها حتى تفيض ماؤها على المسلمين بغير ثمن . .

وسارع « عثمان » رضى الله عنه إلى تحقيق رغبة الرسول ، فعرض على اليهودى صاحب البئر أن يبيعها له ، فأبى . . فساوَمه « عثمان » على نصفها . واشترى النِّصف باثنى عشر ألف درهم . . على أن تكون لليهودى يوماً ولعثمان يوماً . . فكان المسلمون يستسقون فى يـــوم عثمان ما يكفيهم يومين . . ! ! وهكذا وجد اليهودى نفسه ، وقد خسر سُوقه التى كانت رائجة ، فعاد يعرض على « عثمان » أن يشترى منه النصف الثانى ، فاشتراه . . وفاضت البئر بمائها العذب تروى أهل المدينة بغير ثمن وبغير حساب . . ! !

* وعند ما كثر الداخلون فى دين الله بالمدينة ، وصار المسجد

يضيق بهم ، تمنى رسول الله لو يجد من بين أصحابه من يشترى الرقعة المجاورة له كى تضم إلى المسجد ، ويزداد بها رحابة واتساعاً . .ومرة أخرى ، لم يكن هناك غير « عثمان » ، تلقف رغبة الرسول فى حبور وغبطة ، وذهب إلى أصحاب ذلك المكان ، واشتراه منهم بثمن باهظ قدره الرواة بخمسة وعشرين ألفاً . .

* وعندما فتح الله مكة لنبيه وعاد إليها ظافراً كريماً . . رأى أن يُوسِّع المسجد الحرام ، فعرض على أصحاب بيت ملاصق للمسجد أن يتبرعوا لغرض توسعته فاعتذروا بأنهم لا يملكون غيره ، وليس لهم مال يشترون به سواه .

ومرة ثالثة — كان هناك « عثمان » ، لم يكد يبلغ النبأ مسامعه حتى سارع إلى أصحاب الدار الواسعة العريضة واشـــتراها منهم بعشرة آلاف دينار . .

* وفى العام التاسع الهجرى ولَّى « هرقل » الامبراطور الرومانى وجهه المتآمر صوب الجزيرة العربية مُتلمِّظا برغبة شريرة فى العدوان عليها والتِهامها . .

لقد كان الدين الجديد برسوله العظيم ، ورجاله الشجعان البواسل قد ملأوا حياته وحياة « بيزنطة » كلها قلَقاً وخَوْفاً .

وكان الامبراطور يومئذ مُنتَشِياً بنصره على فارس ومن ثمَّ قرَّر أن يسير بجيشه إلى هذه الأمة الجديدة فى بلادها وديارها .

وفعلا أمر قواته بالاستعداد وانتظار أمره بالزحف .

وترامت الأنباء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنادى فى أصحابه بالتهيؤ للجهاد .

كان الصيف حاراً يصهر الجبال ، وكانت البلاد تعانى الجَدْب والعُسْرة . . فإذا قاوم المسلمون بإيمانهم وطأة الحر القاتل وخرجوا إلى الجهـاد فوق الصحراء الملتهبة المتأجِّجة ؛ فمن أين لهم العتاد والنفقات المبهظة التى يتطلبها القتال . . ؟ !

لقد حَضَّ الرسول أصحابه على التَّبرُّع ، فأعطى كلٌّ قدْرَوُسْعِه ، وسارعت النساء بالحلى يقدمنه إلى رسول الله ليستعين به فى إعداد الحملة . . بيد أن التبرعات جميعها لم تكن لتُغنى كثيراً أمام المتطلبات الهائلة للجيش الكبير . هذا الجيش الذى نُعِت يومئذ بـ « بجيش العسرة » .

ونظر الرسول إلى الصفوف الطويلة العريضة من الذين تهيأوا للقتال وقال :

« من يُجَهِّز هؤلاء ، ويغفرُ الله له » . . ؟ ؟

وما كاد « عثمان » يسمع نداء الرسول هذا ، حتى سارَعَ إلى مغفرة من الله ورضوان .

وهكذا وجدت العسْرَةُ الضاغطة « عُثمانَها » المِعطاء ! !

وقام رضى الله عنه بتجهيز الجيش كله ، حتى لم يتركه بحاجة إلى خِطام أو عقال . . ! !

يقول ابن شهاب الزهرى :

« قـدّم عثمان لجيش العُسْرة فى غزوة

تَبوك تسعمائة وأربعين بعـــيراً ، وستين فرساً ، أتمَّ بهـــا الألف » ! !

ويقول حذيفة :

« جاء عثمان إلى رسول الله فى جيش العُسرة بعشرة آلاف دينار صبَّها بين يديه ، فجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يُقلبها بيده ويقول : غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت ، وما هو كائن إلى يوم القيامة »

ويقول عبد الرحمن بن عوف :

« شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاءه عثمان بن عفان فى جيش العُسْرَة بسبعمائة أوقية من الذهب » . .

ألم أقل لكم : إنه كان يبدو وكأنه للمموِّل الوحيد للأمة الجديدة ، والدين الجديد . . ؟ ؟

تُرى هل كان « عثمان » قادراً على كل هذا البذل الطَّوْعِىِّ لو لم يكن قد هاجر إلى الله سبحانه هجرة صادقة ، أنْسَتْه كل شىء إلا الله ورسوله والدار الآخرة . . ؟ !

* * *

ومضى الرسول على رأس جيشه المسلم حتى وصلوا موطناً يُدْعى « تَبُوك » فى منتصف الطريق بين المدينة ودمشق .

وهناك جاءته الأخبار مُبشرة بأن الامبراطور الذى كان يعد العُدَّة

للزحف من دمشق ، قد ثَلَم الله عزْمَه ، وغادر دمشق نافضاً يديه من محاولته اليائسة بعد أن علم بخروج النبي وأصحابه إليه .

وحَمِدَ الرسول ربه أن كفى المؤمنين القتال ورجع الجيش بكل عتاده الذى أمده به « عثمان » .

فهل استرجع من ذلك شيئاً . . ؟ ؟

هل استرد منها قرشاً ، أو بعيراً ؛ أو خِطاماً . . ؟ ؟

كلا . . وحاشاه أن يفعل . . ولقد ظلَّ كما كان دوماً سريع التلبية لكل إيماءة من الرسول تعنى جديداً من البَذل ، ومزيداً من العطـــاء .

* * *

هذه لمحة من ضياء تكشف لنا حقيقة الهجرة التى هاجرها « عثمان » . .

الهجرة التى جعلته يخرج من ماله ، ومن جاهه ، ومن دنياه العريضة كلها ، ويُسافر إلى الله فى حياء رجل يهرب من الأضواء . . ويقطع أيامه بين أصحابه ، وفى مجتمعه مُتلفعاً بهدوء عجيب ، معطياً ظهره لِصخب الشهرة ، وإغراء الظهور .

كانت العبادة أُنْسَ رُوحِهِ . . وكان القرآن مذ أسلم مَهوَى فؤاده ، وصديق عمره .

أفما آن لنا أن نرى من عبادته ونُسكه مشهداً يزيدنا معرفة ببهاء روحه ، وعظمة يقينه . . ؟

بلى — آن . . . !

الفصل الثاني

الأوّابُ الرّحِيمُ

زوجه الرسول صلى الله عليه وسلم ابنته « رُقيَّة » .. ولما توفَّاها الله إليه ، زوجه ابنته « أم كلثوم » .. ولما انتقلت إلى الرفيق الأعلى ، أسِفَ الرسول إذْ لم يكن له كريمة أخرى يزوجها صهره الحبيب ، وقال قولته المأثورة :

« لو أنَّ لنـا ثالثة لزوَّجناك إياها »

بل إن الحديث لَيُرْوَى بصيغة أخرى تقول :

« لو أن لى أربعين بنتاً لزوجتهن عثمان واحدة بعد واحدة » ! !

فما المزايا وما الشَّمائل التى أهَّلَت « عثمان » لكل هذا الحدَب وهذا الايثار من رسول الله العظيم ؟ ؟ ..

إنها شمائل كُثْر ، تعبِق بالخير ، وبالمروءة .. ويفوح منها عبير الرحمة حيث نلقاها أو حيث تَلقاه ..

والرسول الذى مَنَّ الله به على عباده قائلا :

« لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، عزيزٌ
عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ،
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » .

هذا الرسول الرءوف الرحيم ، لم يَكن يَستهويه من بين شمائل البشر شيء مثلما تستهويه الرحمة ، ومثلما يستهويه التَبتُّل الصادق إلى الله ، والإخبات الوثيق إليه . .

ولقد كان حظ « عثمان » من الإخبات والرحمة عظيماً وجزيلا .

إنه أوَّابٌ رحيم . .

صوَّام النهار ، قوَّام الليل . يتفجَّر قلبه رحمة وحناناً .

أوَمِن أجل هذا قال الرسول يوماً :

« لكل نبي فى الجنة رفيق »
« ورفيقى فى الجنة عثمان » . . ؟ ؟

لقد كان فى العبادة واحداً من أفذاذها المعدودين ، وبطلا من أبطالها المبرِّزين .

وصف معاصروه هُيامه بالعبادة فقالوا :

« كان عثمان يصوم الدهــر ، ويقوم
الليــل إلا هَجْعَــة من أوَّله » .

وإنا لنعلم ما كان وراء « عثمان » وما كان بين يديه من نَعماء جَمَّةِ الغَدَق ، وارفة الظلال .

فعندما يقضى الدهرَ صوَّاماً ، رجلٌ مثل « عثمان » ، تَعِجُّ داره بأطايب الطعام . .

وعندما يقضى الليلَ قوَّاما ، رجل تُغْرِيه الفُرُش الناعمة الوثيرة بالدَّعَة والراحةِ ؛ فلابد لهذا الرجل أن يكون من طراز آخر بلَغت كلمات الله من روحه أعماقها . ورنا قلبه إلى الله رُنُوًّا أنساه كل شيء عَـــداه .

ثم حين نراه يُثابر على عبادته طوال عمر مديد بلغ الثمانين من الأعوام ، فإن صورة العابد الأوَّاب تستكمل أمامنا قَسَماتها الباهرة الجليلة ، وتفتح أعيننا وبصائرنا على حقائق هذا العابد الأواب بكل ما لها وكل ما عليها .

لقد كان فى عبادته وفى طُهره موصول القلب بالله كما كان عظيم الوفاء . . ذلك أن حياته حتى قبل الإسلام كانت حياة نَقيّة ، وكان دائم التحدث بنعمة الله هذه عليه فيقول :

« ما زنيت ولا سرقت فى
جاهلية ولا فى إســلام » .

وكانت صِلَةُ قلبه بالله بعد إسلامه ، تنهض على وَعْيٍ رشيد بجوهر هذه الصلة وهذه العلاقة .

وإذْ كان القرآن كلمةَ الله التى رسم بها لعباده كيف يَحيون وكيف يعبدون ؛ فقد تعلّق قلبه بالقرآن تعلُّق الوَالِه الهيْمان ، فكان ربما استغرق الليل كله على طوله فى ركعتين اثنتين ، يظلُّ يقرأ فيهما من القرآن حتى تروى روحه الظامئة المشتاقة ، وحتى يوشك أن يبلغ آخره وخِتامَه ! !

ولسوف نراه بعد حين ، وقد اقتحم الثوار داره تدفعهم الفتنة الجامحة الجاحدة العمياء لقتله واغتياله ، فلا يعنيه من الأمر كله إلاّ

أن تُستَلَّ الحياة من جَسده الوهْنان ، وبين يديه مصحف .. وعلى لسانه وشفتيه كلمات الله .. ! !

ولم يقف هُيامه بالقرآن عند جد التّلاوة ، وترطيب لسانه وفؤاده بآياته المباركات . بل كان التعبُّد به والتعبُّد له جوهر هذا الهُيام .

فى بَدْءِ الفتنة التى نَشِبَتْ ضده ، جلس قوم يحاورونه ويطيلون الحِوار . فكان جوابه لهم :

« إن وجدتم فى كتاب الله أن تَضعوا
رِجلَيَّ فى قيود ، فضعوهما » ! !

فكتاب الله عنده هو الحجة البالغة ، وهو فصل الخِطاب ..

أجَـلْ ..

كان القرآن قِبلَتَه وقُدوَتَه ، ومن ثَمَّ أدركتْ عبادته صفاءها وجلالهَـا ..

ولطالما كانت تهزُّه هذه الآية فيكثر تردادها :

« واضْرِبْ لَهُمْ مثَلَ الحَياةِ الدُّنيــا كمَاءٍ
أَنْزلْنــاهُ مِنَ السَّماءِ فاخْتَلطَ بهِ نَباتُ
الأرْضِ ، فَأصبَحَ هَشِيـاً تَذْرُوهُ
الرِّياحُ . وكان الله عَلَى كُلِّ شَىءٍ مُقْتَدِراً »

إن الرجل الثرىَّ العريض الثَّراء ، قد وَجد تِرْياقه من إغراء المال ، ووجد تعويذته الوُثقى من فتنته الضَّارية فى هذه الآية الكريمة التى تفضح زيف الدنيا ، وتكشفها للمفتونين بها ؛ حتى يبصروها على حقيقتها « هشياً تذروه الرياح » ! !

وهكذا وجدنا جوده العظيم .. جُودَ رجل لم يعد المال فى نظره سوى هَشيم ، إلاَّ أن ينفقه فى سبيل الله فيتحوَّل بهذه النفقة إلى خُلودٍ حَق ، وثواب باق عظيم ..

* من أجل هذا رأيناه كما أسْلَفْنا يشترى « بئر رومة » وحده .. ويُجهّز جيش العُسْرة بنفقات بالغة ، تنوءُ بها الخزائن الممتلئة ..

* ثم نراه يُمْضى مع نفسه مَوْثقاً لا يُخْلِفُه طوال حياته : هو أن يعتق كل جمعة عبداً ، ويُحرِّر رقَبَة .. يشترى العبد من سيده بأى ثمن ، ثم يهبه حريته مبتغياً وجه ربه الأعلى ..

* ولا يكاد يبصر التجارَ يهمون باحتكار الأرزاق ، أو بيعها بثمن باهظ ؛ حتى يرسل قوافله لتعود محملة بما يفسد عليهم احتكارهم ويصيب استغلالهم بخيبة أمل قاتلة ..

* وإذا جاءت رواحلُه من اليمن أو من الشام محملة بالخيرات ، وتواكَبَ حوله تُجار المدينة وما حولها ، دخلَ معهم فى مُساوَمات شيِّقَة .. ما أجمل أن نطالع الآن إحداها ، يرويها لنا ويحدثنا بها « ابن عباس » رضى الله عنه فيقول :

« قَحِط الناس فى زمان أبى بكر ، فقال الخليفة لهم : إن شاء الله لا تُمسون غداً ، حتى يأتيكم فرج الله ..

« فلما كان صباح الغد ، قدمت قافلة لعثمان

« فغدا عليه التجار ، فخرج إليهم وعليه مُلاءة قد خالَف بين طرفيها على عاتِقه ..

وسألوه أن يبيعهم قافلَته
« فسألهم : كم تُربحوننى . . ؟
« قالوا : العشرة اثنى عشر . .
قال : قد زادنى . .
قالوا : فالعشرة خمسة عشر . .
قال : قد زادنى . .
قالوا : من الذى زادك ، ونحن تجار المدينة . . ؟ ؟
قال : إنه الله . . زادنى بكل درهم عشراً ، فهل لديكم أنتم مَزيد . . ؟ فانصرف التُّجار عنه ، وهو ينادى : اللهم إنى وهبتُها فقراء المدينة بلا ثمن ، وبلا حساب » . .

* * *

هكذا كان ولاؤه للقرآن ، ومنهجه فى العبادة . .

إنها عبادة تعنى مع قيام الليل وصيام النهار ، بذلٌ سَخِىٌّ وعطاء مِدْرَار . .

وتتألق روح العابد الأوّاب فى قدرته على الزهد والبساطة ، فكثيراً ما كان يطبقهما على حياته ، هو الذى تتدفق عليه الأموال ، وينفقها باليمين وبالشمال ! !

فيحدثنا « شَرَحْبِيل بن مسلم » قائلا :

« كان عثمان يطعم الناس طعام الإمارة . .
ويأكل هو الخـــل والزيت » ! !

كما يحدثنا « عبد الله بن شدّاد » فيقول :

« رأيت عثمان يخطب يوم الجمعة وعليه
ثوب قيمته أربعة دراهم ، أو خمسة
دراهم . . وإنه يومئذ لأمير المؤمنين » ! !

هذا سلوك عابد أوَّاب ، أضوَى شهوة الطعام لديه حتى « بَشِمَتْ » بالصيام ! !

وأذلّ نخوة الجاهلية فى عروقه . حتى عَزتْ نفسه بروعة الإسلام ! !

ومن أى النواحى جئته ، أَلْفَيْتَ جلال العابد يبهر مُحَيَّاك .

* يغضب على خادم له يوماً فيعرك أذنه حتى يُوجِعه . . ثم سرعان ما يَقُضُّ ضمير العابد مَضجعه ، فيدعو خادمه ويأمره أن يقتصّ منه فيعرك أذنه . . ويأبى الخادم ويُولى مَدْبراً . لكن « عثمان » يأمره فى حزم ، فيطيع . .

« اشْدُدْ يا غـــلام ؛ فإن قِصاص الدنيا
أرحم من قصاص الآخـــرة » ! ! !

إنه العابد الأوَّاب ، نَلقاه هنا كما نلقاه فى كل مقام . .

* وندخل مسجد المدينة ، فنرى رجلا مهيباً جليلا قد نام فوق حصاه ، ورداؤه تحت رأسه ، ثم ينهض من نومه فنرى أثر الحصا فى جنبه . . إنه هو أيضاً . . العابد الزاهد الأواب عثمان بن عفان . . أكثر قومه مالا وثراء ونَعمة ، فى الجاهلية وفى الإسلام . . ! !

إن هذا لَيذكِّرنا برأى « عبد الله بن عمر » فيه . . فلقد كان رضى الله عنه يقرأ الآية الكريمة :

« أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ، ساجِداً وقائِماً ،
يَحْذَرُ الآخِرَةَ ويَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ »

ثم يقول : هو « عثمان بن عفان » . .

* * *

أما « عثمان » الرحيم ، فقد كان أمره عجبًا . . إن الرحمة تشيع فى حياته كما يشيع الرِّىُّ فى العود الأخضر الرَّيّان .

ومن التصرفات العادية اليسيرة ، إلى التصرفات التى ترتبط بالمصير ويتوقف عليها أمر الحياة والموت ، نجد الرحمة نبراس هاتيك التصرفات جميعها .

ف « عثمان » الذى ينهض من الليل – وهو خليفة المسلمين – فيرفض أن يوقظ أحداً من خَدَمه كى يُعد له وضوءه ، ويتحامل على شيخوخته المجهدة فى إحضار الماء وإسباغ الوضوء . . هو « عثمان » الخليفة الذى يرفض النجاة من سيوف قاتليه ، إذا كان ثمن هذه النجاة قطرات دم تُسْفَح من مسلم برىء . . ! !

* يدخل عليه « زيد بن ثابت » وقد رأى الثوار يتنادَون لحصار داره فيقول له :

« يا أمير المؤمنين . . هؤلاء الأنصار بالباب
يقولون : إن شئت كنا أنصاراً لله مرتين . . »

فيجيبه الخليفة الرحيم :

« أمَّا القتال ، فلا . . » ! !

* ويصيح فى الصحابة الذين تجمعوا حول داره ليواجهوا الثوار بالسلاح :

« إن أعظمكم عنى غَناءً ، رجــل كفَّ
يده وسلاحه » . . ! !

* ويـرى أبا هريرة شاهراً سلاحه فى اهتياج شديد ، فيدعوه إليه ويقول له :

« أيَسُرُّك أن تقتل الناس جميعاً وأنا معهم. ؟
« أمَا إنك والله لو قتلت رجلا واحـداً ،
لكأنّما قتلتَ النـاس جميعاً » . . ! !

* وحين يعلم أن عُصْبة كبيرة من شباب المسلمين وعلى رأسهم الحسن ، والحسين ، وابن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، قد أخذوا مكانهم لحراسته ، وشهروا سلاحهم ، يتفطر قلبه أسىً ، ويدعوهم إليه ويتوسَّل إليهم قائلا :

« أُناشِدُكُم الله وأسألكم به ، ألاّ تُراق
بسببى مِحْجَمَةُ دم » . . ! ! !

ألم أقل لكم : إنه أوَّابٌ رحيم . .

وإنها لرحمة جامعة ، تُغطِّى بعطائها المقسِط جلائل الأحداث وصغارَها . . فللخادم منها حظه وحقه فى أن ينعم براحة النوم وإن أضْنَى الخليفة نفسه وشيخوخته فى ظلمة الليل البهيم . . ولقطرات الدم حظها

وحقها فى أن تنعم بالسلامة والعافية ، وإن كان بديل ذلك أن تزهق روح الخليفة الشيخ ، بيد معتد أثيم ، وغادر زَنِيم . . ! ! !

* * *

لقد كان « عثمان » رضى الله عنه أحد القلائل الذين يدفعون حياتهم ثمناً لفضائلهم العالية .

ولقد توغلت الرحمة فى حياته وفى سلوكه حتى اقتضته آخر الأمر حياته نفسها فجاد بها ، مؤثراً أن يموت وولاؤه للرحمة مشدود الأواصر ، علىَ أن يحيا وقد فقد مكانه فى طليعة الرحماء الأبرار .

ولقد كان من الطبيعى لرجل وسعت رحمته الناس جميعاً ، أن تُغطّى رحمته ذوى قُرْباه .

ولقد كان رضى الله عنه نسيج وحده فى حبه أهله ، وفى صلته رحمه .

وحسبنا فى ذلك قول الإمام على عنه :

« أوْصلُنا للرحم عثمان »

وغداً . . عندما تُلْقَى على كاهله مسئولية الخِلافة ، سنرى رحمته الشديدة بأهله ، وحبه المفيض لذوى قرباه ، يلعبان دوراً حامى الوطيس فى الأحداث الضارية التى رزأت الإسلام بأفجع مآسيه . .

* * *

قلنا إن « عبد الله بن عمر » رضى الله عنهما ، كان يتلو قول الله تعالى :

« أمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِدًا وقائماً ،
يَحْذَرُ الآخِـرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ »

ثم يقول : إنه « عثمان بن عفان » . .

وهى شهادة حق تتألق فى ضوئها ، بل تتألق هى فى ضوء العبادة الصافية المثابرة التى أُتْرِعَتْ وازدانت بها حياة « عثمان » منذ عرف الله ، إلى أن لقيه شهيداً مجيداً . .

فلقد كان رضى الله عنه ، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه . .

وحذرُه الآخرة ورجاؤه رحمة الله ، يتبدَّيان فى حياته كلها ، وفى تصرفاته جميعها . . حتى تلك الطائفة من تصرفاته التى أُخِذتْ عليه ، كان وراءها اطمئنان رجل يرجو رحمة ربه . .

ولقد كان يحمل إشفاقاً من الآخرة عظيماً . نراه فى خُطبه التى كان يخطب المسلمين بها .

« أيها الناس . .

« اتقوا الله . فإن تقوى الله غُنم . وإن أكْيَس الناس مَن دَانَ نفسه وعمِل لما بعد الموت واكتسَبَ من نور الله نوراً لقبره . .

« ولْيَخْش عبد أن يحشُره الله أعمى وقد كان بصيراً » . .

وفى خطبة أخرى يقول :

« إن الله أعطاكم الدنيا ؛ لتطلبوا بها الآخرة . ولم يُعطِكُموها لتركنوا إليها . .

« إن الدنيا تفنى ، وإن الآخرة تبقى ،

فآثِرُوا ما يبقى على ما يفنى
« إن الدنيا منقطعة .. والمصير إلى الله وحده »

وكانت روحه ترتجف ، وعَبراته تفيض عند ما يذكر الآخرة ، وعندما يتخيَّل نفسه ، وقد انشقَّ عنه قبره ، ونَسِلَ من جَدَثِه مسرعاً إلى العَرْضِ والحساب .

ولقد رُوِى عنه قوله :

« لو أنى بين الجنة والنار ، لا أدرى إلى
أيتهما يُؤمَرُ بى ، لَتمنَّيْتُ أن أصير
رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير » ! ! !

* * *

ورجل يحذر الآخرة كل هذا الحذر ، لا يخطئ السُّبل المفضية إليها ، ثم هو لا يخطئ أفضل هذه السُّبل وأسماها .. ذلكم هو الجهاد فى سبيل الله .

وهنا – كما فى بقية شمائله وفضائله – لا نجد فى عثمان « عابدَ صَوْمَعة » .. بل « عابداً » يملأ الحياة سعياً وجِداًّ وبذلا واستبسالا .

لقد كان بحيائه وبتركيبه النفسى يكره رؤية الدم المسفوح .

ولكن حين هبَّت قُوَى الوثنية والشرك لتطفئ نور الله ، وأمر الله رسوله ومَن معه أن يأخذوا سلاحهم بأيْمانهم . وأن يبيعوا لله أنفُسهم وأرواحهم ألْقى « عثمان » بنفسه فى المعمعان الرهيب ، وأخذ مكانه فى الصفوف المرصوصة على أرض الغزوات والمعارك .

* لم يشهد « غزوة بدر » ؛ لأن زوجته « السيدة رُقَيَّة » بنت

الرسول كانت مريضة مرض الموت ، وأمره النبي أن يبقى بجوارها ويسهر عليها . . ولقد امتثل وأطاع . وفى اليوم الذى جاءت البشرى إلى المدينة بانتصار المسلمين فى « بَدْر » فاضَت روح « رُقَيَّة » إلى بارئها .

* وعند ما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يوزع غنائم النصر على المقاتلين ، اعتبر « عثمان » حاضراً ومقاتلا ، وفرض له قَسْمه ونصيبه ! !

* وفى غزوة أحُد صاوَل وقاتَل . . ولكن عند ما باغَتَ جيش الشرك المسلمين من جديد وأخذهم على غِرَّة شَتَّتَتْ صفوفهم ، وبَعْثَرَتْ تماسُكهم ، وتعالت الأصوات الناعِيَة : [أنّ محمداً قد مات] تغشى « عثمان » من الذهول والفجيعة ما جعلة يُوَلِّى عن أرض المعركة مُدْبراً مع الذين تَوَلَّوْا يومئذ مُدْبرين ، يدفعهم الذهول لا الجُبْن . . فقدَّر الله عُذْرهم وقبل اعتذارهم ونزل الوحى بشأنهم يقول :

« . . . ولقد عفا الله عنهم »

* ولم يتخلف عن المعارك التى خاضها الإسلام مِن بعد ، فشهد خيبر ، والفتح ، والطائف ، وهوازن ، وتبوك ،

وفى يوم « الحُدَيْبِيَة » تصدَّى لمخاطرة نبيلة اختاره لها الرسول فسارِع إليها فى بسالة واستبشار .

* * *

كان ذلك فى العام السادس للهجرة ، حين عزم رسول الله أمره وخرج بأصحابه إلى مكة ليزور البيت الحرام . حتى إذا بلغ مَنهَلَةً من

مَناهِل الطريق عند « عُسفان » جاءته الأنباء أنّ قريشاً قد علمت بمسيره ، فخرجت فى ثياب الحرب للقائه .

واستأنف الرسول مسيرته المباركة حتى بلغ مهبط الحدَيْبِيَة على مشارف مكة ، واستقرّ بأصحابه هناك .

وأخذت « قريش » تبعث برُسلها ومندوبيها إلى النبي ليُثبطوا عزمه ، وليحملوه على الرجوع .. لكن مندوبيها جميعاً كانوا يعودون بغير الوجوه التى جاءوا بها .

أجَلْ .. كانوا يقدمون على الرسول بوجوه كالحة غِضاب تحكى إصرار قريش على التَّحدِّى .. ثم لا يكادون يجلسون بين يدى الرسول ويسمعون كلماته حتى تلِين قلوبهم وتخشع .

بل إنهم وقد جاءوا يُحذِّرون الرسولَ بأسَ قريش ، عادوا جميعاً لِيُحذِّروا قريشاً بأسَ الرسول .. ! !

كان آخر هؤلاء المبعوثين « عروة بن مسعود » .. جلس يقول للنبي عليه السلام : [يا محمد ، إنها قريش قد خرجَت معها العُوذُ المطافِيل ، قد لبِسُوا جلود النُّمور ، مُتعاهدين ألاّ تدخُلَها عليهم عُنوة أبداً] ..

لكنه وقد أذْهَلَه جلال ما سمع وما رأى ، عاد إلى قومه ليقول لهم : [يا معشر قريش . إنى قد جئت « كِسْرَى » فى مُلكه .. و « قيصر » فى ملكه .. و « النَّجاشِىّ » فى ملكه .. وإنى والله ما رأيت ملكاً يعظمه قومه ، مثلما يعظم أصحاب محمد محمداً .. ولا رأيت ملكاً يحبه قومه ، كما يحب أصحاب محمد محمداً .. وإنهم والله لن يُسْلِموه أبداً .. فرَوْا رأيكم] .. ! !

لكن قريشاً كعادتها ، أخذتها العِزّة بالإثم . .

هنالك رأى الرسول أن يبعث إليهم من عنده رسولا يوكد لهم أنه عليه السلام لم يأت غازياً ، بل زائراً للبيت ومُعظِّما له ، فدعا « خُراش ابن أمية الخزاعى » وانتدبه لهذه المهمة . . بَيْدَ أنَّ قريشاً لم تكد تراه وتسمع كلماته حتى عقَرتْ بعيره الذى كان يركبه ، وهمُّوا به ليقتلوه لولا أن مَنعَتْه الأحابيش وأنقذته من الموت .

وعاد « خُراش الخزاعى » إلى الرسول وقصَّ عليه ما حدث .

وفى اليوم التالى ، بعثت قريش خمسين رجلاً من أشِدَّائها ، ليتحرشوا بالمسلمين ، وليضربوا معسكرهم بالحجارة وبالنبال ، وليختطفوا منهم من يستطيعون اختطافه .

لقد جُن جنونُها إذن ، حتى همَّت بقتل مبعوث الرسول إليها ، وهو أمر كانت تقاليدهم تأنفه وترفضه وتأباه . . فما عُرف عنهم قط قتل السُّفَراء ! !

ورأى الرسول عليه السلام ما يعترى الموقف من توتُّرٍ يُنْذِر بالخطر ، فقرر أن يبعث رسولاً آخر يرد قريشاً إلى صوابها إن كان قد بقى لها صواب ! !

واختار « عثمان بن عفان » . . .

كانت الأخطار تهدد هذه الوِفادَة . .

فالمبعوث الذى أرسله النبى من قبل ، حاولت قريش قتله . .

ولم تكتف بهذا فأرسلت خمسين من رجالها يشاغبون أصحاب الرسول ويُحاولون اختطاف بعضهم .

وَسْط هذه المخاطِر المنذِرة المرْعِدَة ، حمل « عثمان » أمر الرسول ومضى إلى قريش ، لا يعنيه أن يرجع حيًّا أو يقضى هناك شهيداً ، وعلى أبواب مكة واجه الجموع المتحفزة من قريش فبلَّغهم رسالة الرسول ، فكان جوابهم له : [إن شِئت أنت أن تطوف بالبيت فطُفْ ، أما محمد وأصحابه فلا] .

ويجيبهم « عثمان » :

« ما كُنتُ لأَفعل ، حتى يَطُوفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وحال جاهُه وسُؤْدُدُه فى قريش دون الاعتداء على حياته ، لكنهما لم يَحولا دون اعتقاله واحْتِجازه .

ويبدو أن قريشاً أرادت أن تَعْجُم عود المسلمين ، وتبلوَ نواياهم ، فأوْعَزَتْ إلى بعض رجالها ، كى يذهب إلى معسكر المسلمين ويشيع أن قريشاً قتلت « عثمان » . .

هُنالك قرر الرسول عليه السلام أن يُرىَ المشركين من تصميمه ومقدرته ما يزجرهم عن طغيانهم وما يَعْمهُون ، فدعا أصحابه إلى البَيْعَة . . وهناك تحت الشجرة ، تمَّت أروع مواثيق التاريخ وأكثرها جلالاً وسُمُوًّا

تلك كانت « بيعة الرضوان » التى خلدها القرآن فى تنزيله الكريم وآياته المباركات .

« إنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إنَّما يُبايِعُونَ اللهَ . يَدُ اللهِ فَوْقَ أيْدِيهِمْ . . »

« لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المؤْمنينَ إذْ يُبايِعُونَكَ
تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأنْزَلَ
السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وأثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً . . »

وكأنما كان الرسول يعلم بما معه من نور الله وصفاء البصيرة أن « عثمان » لم يُقتل ولم يُصِبْه سوء ، فبايع نفسه باسم « عثمان » إذ لم يكد عليه السلام يفرغ من مبايعة أصحابه ؛ حتى شدَّ بإحدى يديه على الأخرى قائلا :

« وهذِهِ بَيْعَةُ عثمان »

فلم يبق من المسلمين أحد إلا تمنى لو أنه كان صاحب هذه الحظوة وهذا التكريم . .

وعاد « عثمان » سليماً مُعافى ، وأرسلت قريش سفيراً جديداً هو « سُهيل بن عمرو » الذى أبرم مع الرسول معاهدة عُرِفَت فى التاريخ بـ « صُلح الحديبية » .

* * *

هكذا كانت العبادة عند عثمان . .

يقوم ليله ضارعاً .

ويصوم نهاره خاشعاً .

وينفق ماله بغير حساب .

ويحمل سيفه إذا نودِيَ للجهاد والضِّراب .

وهو يؤدى كل فرائض دينه وشعائر عبادته داخل دائرة وُثْقى من الأمانة على مسئولياته وتبعاته ، كمؤمن صادق وصحابى جليل .

كانت عيناه تفيضان من الدَّمْع كلما تلا هذه الآية الكريمة .

« إِنَّا عَرَضْنَا الأمانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ والأرْضِ والجبالِ فَأَبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَها وأشْفَقْنَ مِنْها ، وحَمَلَها الإِنسانُ . . »

أَتُرى بصيرته الباطنة كانت تستَشِفُّ من وراء الغيب أياماً سيحمل فيها من الأمانة والمسئولية ما يُطيق وما لا يُطيق . . ؟ ؟

لقد حمل قَدْرَ طاقته وجُهده أمانة دينه ، وأمانة حياته .

وكانت الأمانة فى مفهومه تعنى الإخلاص الكامل لهذا الدين .

ومن ثَمَّ أخلَص وصدَق حتى بشَّره الرسول بالجنة ، واصطفاه ليكتب له الوحى ، كما بشَّره عليه الصلاة والسلام بالشهادة يوم كان يقف على مُرتَفع من جبل أحد ، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ، فارتجف المكان الذى يقفون فوقه ، فضربه الرسول بعقبه وهو يقول :

« اثبُت أحُــدُ ، فإنما عليك نبىٌّ ، وصِدِّيق ، وشهيدان » ! !

الفصل الثالث

ثالث الخلفاء

أبى أمير المؤمنين « عمر » وهو يجود بأنفاسه الطاهرة أن يستخلف أحـــداً .

وحين ألحّ عليه بعض أصحابه كى يختار بنفسه مَن يخلُفه ، استمسك بإبائه ورَفْضه ، وقال لهم :

« أأَحملُ أمركم حيًّا وميتاً .. ؟ وَدِدْتُ أن يكون حظّى منكم الكفَاف ، لا عَلىَّ ولا لى ..

« ألا إنى إنْ أسْتَخلِفْ ، فقد استخلَف من هو خير منى — يعنى أبا بكر — وإن أتْرُك ، فقد ترَك من هو خير منى — يعنى رسول الله — واللهُ حافظ دينه »

وولّى رُوحه الضارعة شَطْر الله الرحيم العليم ، يسأله أن يُلهمه الرُّشد ، وأسبل جفنيه وأعمل فكره .. وعلى الفور لاح له من الله نور . وكأنما

تذكَّر ذلك اليوم البعيد القريب ، وقد أرهفوا السمع لرسولهم الكريم يعظهم ويناديهم قبل وفاته بأيام .

« أيها الناس . .

« إن أبا بكر لم يَسُؤْنِى قط ، فاعرفوا له ذلك . .

« أيها الناس . .

« إنى رَاضٍ عن عمر ، وعلى ، وعثمان ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن مالك ، وعبد الرحمن بن عوف ، والمهاجرين الأولين ، فاعرفوا لهم ذلك » .

على ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن .

ما أجلَّها من ذكرى ، تعود الآن فى أوانها . .

فليكن لهؤلاء الستة الذين منحهم الرسول كل هذا التكريم . عاقبة الأمر الذى يشغل الأمير المحتضَر . ولْيَضَع فى أعناقهم مجتمعين ، الأمانة التى حملها طوال سنى خلافته فى مثل عَزم المرسلين ، وهكذا جمعهم حوله ، ووجَّه إليهم الحديث :

« إنى نظرت فوجدتكم القادَة ، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنكم راض ، وإنى لا أخاف الناس عليكم ، ما استقمتم.

« فإذا أنا مِتّ فتشاوروا ثلاثة أيام ، ولا

يأتى اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم . .
« وليحضر معكم عبد الله بن عمر مشيراً ،
ولا يكون له من الأمر شيء . . . »

* * *

كان « طلحة » غائباً عن المدينة . فاجتمع بقية الصحاب الذين وضع « عمر » الأمانة فى أعناقهم قبل رحيله .

واقترح عليهم « عبد الرحمن بن عوف » أن يخلع أحدهم نفسه ويتنازل عن حقه فى الترشيح ليكون صوته مُرجحاً إذا قام خلاف .

وبادر فخلع نفسه .. ثم تنازل « الزبير » عن حقه لـ « على » وتنازل « سعد بن أبى وقاص » عن الترشيح أيضاً . وهكذا انحصر الاختيار بين « عثمان وعلى » وفوّض « عبد الرحمن بن عوف » فى اختيار أحدهما . .

كان على « ابن عوف » أن يُنجز المهمة فى الأيام الثلاثة التى أوصاهم الخليفة الراحل ألاّ يجاوزوها .

وكان عليه خلال هذه المهلة القصيرة أن يُجرى شورى واسعة واستفتاء عمياً بين أصحاب الرسول جميعاً .

وهكذا راح يذرع المدينة ويقرع أبواب دورها .

يقول « ابن كثير » :

« نهض عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه
يستشير الناس ويجمع رأى المسلمين عامّتهم
وقادتهم — جميعاً وأشتاتاً .. مثْنى

وفُرادَى ومجتمعين . سرًّا وجهراً ، حتى
خلص إلى النساء المحجَّبات فى بيوتهن ،
وحتى سأل الولدان فى المكاتب ، وحتى
سأل الركبان الوافدين على المدينة » . .

ونُواصِلُ سيرنا مع « ابن كثير » لنرى معه كيف تمَّ الأمر ، وكيف حمل « عثمان » أمانة الحكم . وما أفْدَحها من أمانة . . ! !

« . . . ثم أرسل عبد الرحمن فى طلب عثمان
وعلى ، فقدما عليه ، فأقبل عليهما وقال
لهما : إنى سألت الناس عنكما ، فلم أجد
أحداً يعدل بكما أحداً . .

« ثم أخذ العهد على كل منهما لَئِنْ ولاه
لَيَعْدِلن ، ولَئن وُلِّىَ عليه لَيَسْمعن ، ولَيُطيعَن . .

« ثم خرج بهما إلى المسجد وقد لبس
عبد الرحمن العمامة التى عمَّمه بها رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وتقلَّد سيفاً ،
وبعث إلى وجوه الناس من المهاجرين
والأنصار ، ونودى فى الناس كافَّة :
الصلاة جامِعة . . وتراصَّ الناس حتى
غصَّ بهم المسجد ، وحتى لم يبق لعثمان
موضع يجلس فيه إلا فى أخريات الناس
— وكان رجلا حَيِيًّا —

« ثم صعد عبد الرحمن بن عوف منبر رسول الله عليه السلام ، فدعا دعاء طويلا ثم تكلم فقال : أيها الناس ، إنى قد سألتكم سراً وجهراً ، فلم أجدكم تعدلون بعلى وعثمان أحداً . .

« فَقُم إلىَّ يا على . . فقام إليه وأخذ عبد الرحمن بيده وسأله : هل أنت مُبايعى على كتاب الله وسنة نبيه ، وفعل أبى بكر وعمر . . ؟

« قال على : على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيى :

« ثم قال : قُم إلىَّ يا عثمان فقام إليه فأخذ بيده وقال له هل أنت مُبايعى على كتاب الله وسنة رسوله ، وفعل أبى بكر وعمر . . ؟

« قال عثمان : اللهم نَعم .

« فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده فى يد عثمان وقال : اللهم اسمع واشهد . . اللهم إنى قد جَعلت ما فى رقبتى من ذلك فى رقبة عثمان . .

« وازدحم الناس على عثمان يبايعونه » . . .

* * *

كانت أول يمين شَدَّت بالبيعة على يَمِينِه ، يَمين « على بن أبي طالب » . . وتتابع المسلمون جميعاً يُبايعون :

وهكذا حمل « عثمان » أثقال الخلافة . . حملها وهو على وَشْك أن يستقبل السبعين من عمره . . ترى هل كان بها حَفِياً وعليها حريصاً . ؟ ؟

فيما نعلم من طبائع البَشر ، فإن سن السبعين ليست السِّنَّ المناسبةَ للطموح ، ولا السِّنَّ التى تتفتَّح فيها الشَّهِياتُ لمتاعب السلطان ؛ فكيف وصاحب هذه السِّنِّ رجل يسيطر الحياء على حياته . والحياء يدفع أصحابه دائماً إلى الظِّلال . . ؟ ؟ ! !

ثم كيف ، وصاحب هذه السِّنِّ رجل يتلقى المسئولية على وَقع نذير رهيب يتمثل فى اغتيال خليفة تحدَّت الجريمة عدلَه وورَعَه وبأسه ونفوذه العظيم الرحيب . . ؟ !

أغلب الظن أن « عثمان » رضى الله عنه تلقى البيعة وهو يرتجف .

ولعلّها تُشير إلى هذا المعنى ، تلك الرواية التى تُحدثنا أن الخليفة بعد تلَقِّيه البيعة من أهل الشورى توجَّه إلى المنبر وعلى محيَّاه اكْتِئاب . .

ولعلّ هذه الخشْية لجلال المسئولية ، هى التى أمسكت لسانه عن الإفاضة فى أول خطبة ألقاها . . فاكتفى بأن حذر الناس من الدنيا وغرورها . . ورغَّبهم فى الآخرة وحبُورها . .

ولولا ضغط الموقف وثقل المسئولية لأفاض . . فما كان رضى الله عنه عاجزاً عن الحديث ولا عَيِيًا . .

يروى عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه قوله :

« ما رأيتُ أحداً كان إذا حَدَّث أتمَّ

حديثاً ولا أحسنَ من عثمان ؛ إلا أنه كان
رجلا يهابُ الحديث » . .

ومن الطبيعى أن يكون هياباً للحديث ، ما دام يتحكم فيه هذا القَدر المفيض الهائل من الحياء .

فإذا انضاف إلى حيائه الشديد وطأة المسئولية الفادحة ؛ فإن خطبته السريعة العاجلة يومذاك تعطينا أول صورة من صُوَر المجابَهة المضنية التى ستقوم بين الخليفة الشيخ ، ومسئولياته الثِّقال الجِسام .

* * *

على أنه مهما تكن وطأة المسئولية ؛ فإن « عثمان » بما معه من إيمان وأمانة سيعطى المسئولية حقها ، وسيُباشر على الفور تبعات البيعة التى أعطاها ، والبيعة التى تلقاها . .

لقد أعطى عهده ومَوْثِقَه أن يسير على سنة الرسول ونهج صاحبيه أبى بكر وعمر . . وهو حين أعطى ذلك العهد لم تكن نواياه منفصلة عن كلماته ، ولم يكن عزمه متخلفاً عن نواياه ، لكنه مع ذلك كان يدرك أن قدرته محدودة ، وأن صاحبيه الراحلين ، لا يُدْرَك شأوُهما ، ولا يُنالُ مَداهما . .

وإنه الآن ليذكُر ذلك اليوم الذى أطلَّ فيه من نافذة داره ، فأبصر على البعد رجلا يجرى فى قيظ النهار وهجير الصحراء ، فظنَّه غريباً نزل به كَرْب عظيم ، ولبث مُطلاً من نافذته حتى يعود ذلك الرجل الملهوف فيدعوه إلى ظِلِّ داره ويُغيثه من لهفته . .

وكم كانت دهشته وعجبه حين اقترب الرجل ، فإذا هو أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » ممسكاً بخطام بعير يتهادى وراءه .

وسأله عثمان : من أين يا أمير المؤمنين . . ؟

وأجابه عمر : من حيثُ ترى . . بعير من إبل الصدقة نَدَّ هارباً فأسرعت وراءه ، ورجعتُ به ! !

وعاد « عثمان » يسأل : ألم يكن هناك من يقوم بهذا العمل سواك .

وأجابه عمر : ومَن يقوم مقامى فى الحساب يوم القيامة . . ! !

ودعاه « عثمان » إلى الراحة حتى تنكسر حِدَّة الهجير ، فما زاد « عمر » على أن قال ودموعه الورِعَة تسيل من مآقيه : [عُدْ إلى ظِلِّك يا عثمان] . . ! !

ومضى لسبيله ، وعينا « عثمان » متعلقتان به حتى غاب عنهما . .

وراح « عثمان » يُتَمْتِم قائلا :

« لقد أتْعَبْت الذين سيجيئون بعدك » ! !

* * *

إنه الآن وقد صار خليفة ، وشاء له القدر أن يكون أول رجل يجيء بعد « عمر » لَيذكُرُ هذه الواقعة وعشرات الوقائع مثلها ، فيأخذه الإشفاق على نفسه وعلى أمته .

إنه يجيء على أثَر خليفتين ليس لهما نظير .

ويجيء بصفة خاصة بعد عشر سنوات « عُمَرِيَّة » فرض فيها « الفاروق » على المسلمين منهجه الصارم ، وعَدله المكين ، وحمل وُلاته وعُماله على مثل ما حمل عليه نفسه من زهد وتقشف وعَناء .

كما يجيء والدولة تتسع رقعتها بغير حساب ، وتتلاطم تحت رايتها أجناس شتَّى . . متباينة الطبائع والغايات .

كذلك يجيء والدنيا قد فُتحت على المسلمين فتحاً عريضاً ، بحيث أصبَحَت دخولهم من التجارة ، وأنْصِباؤهم المشروعة من الفيء ومن العطاء تزيد على احتياجاتهم زيادة تنقل الكثيرين منهم إلى عداد الأثرياء ، وكبار الأثرياء .

كان « عمر » رضى الله عنه يرى إقبال الدنيا وهى فى بدايتها فيرتجف إشفاقاً على المصير .. ويقول :

« إن للمال ضراوة كضراوة الخمر » ..

ويذكر قول الرسول عليه السلام لأصحابه يوماً :

« والله ، ما الفقر أخشى عليكم ، ولكنى
أخشى أن تُفتَح عليكم الدنيا فتنافَسوها »

وها هي ذى قد فُتِحتْ ، وها هو ذا « عثمان » يُدعَى ليحمل المسئولية ويمسك الزِّمام ..

تُرى هل سيُحسن استخدام الشكائم التى استخدمها سلَفه العظيم « عمر » فى مهارة تبهر الألباب ؟؟ ! !

إن الرجل اللَّين الجانب ، الهادئ السَّمْت ، الوديع الطيب لَيُدرك أن العِبْء ثقيل ، وأن أثقل ما فيه هذه الدنيا التى أقبلت بكل إغرائها الخَطِر على المسلمين ، والتى زاد انفلاتها نحوهم وتطويقُها لهم عندما انكسر السدُّ المنيع الشاهق الذى كانَ يصدها ويُثنيها ..

بل لا نكاد نشك فى أن « عثمان » كان يدرك أيضاً أن أكثر الذين رحَّبوا باختياره للخلافة دون « علىّ » كرم الله وجهه .. إنما فعلوا رغبة منهم فى الانعتاق من تزمُّت الحياة وتقشف المعيشة اللذين طالت معاناة

الناس لهما ، واللذين كانا سيفرضان عناءهما من جديد لو تسنّم الأمر « على بن أبي طالب » الذى كان بمنهجه الصارم وعدله المكين ، وبورعه وبتقشّفه ، يمثل امتداداً واضحاً وأكيداً لصرامة « عمر » وعدله ، وتقشفه ، وورعه .

كل ذلك – فيما نحسب – لم يغب عن بال الخليفة الثالث « عثمان » .

ومن أجل ذلك لانخاله إلا قد رأى فى الدنيا المقبلة على المسلمين أعضَى مشكلات عهده .

ومن أجل ذلك أيضاً ، كانت أُولى كلماته إلى الناس فى أول خطبة له ، التنبيه لهذا الخطر قبل أن يستفحل فلا يستطيع ولا يستطيع المسلمون له دفعاً . . وهكذا وقف بعد تمام البيعة يقول :

« . . إن الدنيـــا طُوِيَتْ على الغرور ؛
فلا تَغُرَّنكم الحياة الدنيا ، ولا يَغُرَّنكم
بالله الغَرور .

« . . . ارموا بالدنيا حيث رمَى الله بها ،
واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب للدنيا
مثلا فقال : [وَاضْرِب لَهُمْ مَثَلَ الحَيَاةِ
الدُّنيـا كَماءٍ أنزَلنـــاهُ مِنَ السَّماءِ ،
فَاختَلَطَ بِهِ نَباتُ الأرْضِ ، فَأصْبَحَ
هَشِيماً تَذرُوهُ الرِّياحُ ، وكانَ اللهُ عَلَى
كُلِّ شَيءٍ مُقْتَدِراً .

« المالُ والبَنُونَ زِينَةُ الحَياةِ الدُّنيـا .

والباقِياتُ الصَّالحاتُ خيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وخَيْرٌ أَمَلاً » . .

* * *

على أن موقف الخليفة الثالث من مشاكل الثراء ظلَّ مختلفاً فى التقدير وفى النتائج عن موقف سلفه أمير المؤمنين .

فبينما الاثنان متفقان على أن الثراء المتفاقم يُشكل خطراً على المسلمين الذين نذروا حياتهم للدعوة والجهاد ، والذين زَيَّن لهم دينهم أن يكون زادُ أحدهم من الدنيا كزادِ الرّاكب ، نجد نهجيْهما فى مقاومة هذا الخطر يختلفان . . فأما أمير المؤمنين « عمر » فيركِّز على قَمع الاستمتاع المشروع بهذا الثراء ، ويقاوم الاستسلام لطيبات الحياة الدنيا . . وهو يبدأ هذا القَمع وهذه المقاومة مع نفسه وأهل بيته وعشيرته ، ثم مع وُلاته وعماله ، فلا يكاد يسمع عن وال ترفَّه فى ملبسه أو فى مطعمه حتى يستدعيه إليه فى المدينة ويزجره ويُعنِّفه ، فإن عاد إلى استسلامه للنعيم أقصاه وعزله .

ولقد كان يريد بهذا أن يجد عامة الناس فى ولاتهم قدوة تُعينهم على عدم الاستسلام لمغريات الثراء وأطايب الحياة وترف المعيشة .

هذا كان نهج « عمر » . .

أما الخليفة الثالث « عثمان » فكأنما كان يرى أن المال إنما خُلق لجعل الحياة مُوطَّأة الأكْناف . . وما دام الثراء حلالا ، والاستمتاع مشروعاً ، فليكن للناس حظوظهم من طيبات الحياة ونعيمها ،

لا فرق بين الأمراء والوُلاة والعامَّة . . وهى وجهة نظر تتَّسِق مع نشأته وسجاياه .

أجَل . . لم يجد « عثمان » من حقه – مثَلا – أن يعزل والياً رَغِدَ عيشه ، وترفَّهتِ حياته . واغترف من طيبات الدنيا بكلتا يديه ، ما دام فى استمتاعه هذا لا يَجتَرِح منكرًا ولا يُقارِف إثماً .

ولم يضع الخليفة فى حسابه ما وضعه « عمر » من قبل فى حسابه من أن للمال ضراوةً كضراوة الخمر ، وأن للحلال أحياناً فتنة وخطرًا كفتنة الحرام وخطره ، وأن النفس البشرية طامعة دائماً فى المزيد . وإذا لم يُفرض عليها الفِطام عن كثير من الطيبات المباحة ، سهُل إباقُها وانفلاتُها نحو المتاع المحظور . . ! !

* * *

على أية حال ، فقد اختير « عثمان » للخلافة ، وهو واثق من أمانته على دين الله ، وعلى مُقدَّرات الدولة والأمة اللتين حمل مسئولية الحِفاظ عليهما . . وهو كخليفة ، له الحق فى اختيار الأسلوب الذى يمارس به سلطته ، ما دام واضعاً عينيه دائماً على الأسس الرئيسَة التى شرعها الله ، وسار عليها رسوله وصاحباه .

وهكذا بدأ فى ظل تلك المبادئ الوُثْقى يُباشر مَهامَّه ومسئولياته فى عزم وسداد .

وسنصحبه الآن فى بعض إنجازاته المتألقة . فنراه يبدأ كما يحدثنا ابن كثير ،

[بالكتابة إلى ولاة الأقاليم ، وأمراء الحرب والأئمة على الصلوات ،

والأمناء على بيوت المال ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويَحثُّهم على طاعة الله وطاعة رسوله ، ويَحضُّهم على اتباع السنة وترك الإحداث والابتداع] . .

ورأى بيت المال عامراً ممتلئاً ، فزاد فى عطاء الناس ، واتخذ فى المسجد سماطاً يقدم عليه بصورة دائمة الطعام الطيب للمعتكفين والمتعبدين وأبناء السبيل .

بيد أنه لم يكد يستقر فى منصبه ويتهيأ لإنجاز ما كان يود إنجازه من إصلاح ، حتى فُوجئ بالانتفاضات المسلحة تنقضّ على الدولة من كل مكان .

لقد نقضت دولة الروم عهودها السابقة ، وكذلك فعلت بعض المقاطعات الفارسية .

لكأنما كان مقتل « عمر » رضى الله عنه إشارة البَدْء بين قوى التمرُّد ، فقامت قومة واحدة فى « أذربيجان » و « أرمينية » وأغار الروم بأسطولهم على « الإسكندرية » و « فلسطين » وسرت النار مُطوِّقة الدولة العريضة المتراحبة .

لم يكن التمرد من شعوب تلك البقاع ، فلقد كان فرحها بالإسلام عظيماً يوم ذهب إليها وحررها من طغيان فارس والروم .

إنما جاء التمرد من فلول القوى التى كانت تملك قبل الإسلام وتسُود . . لكنها لم تكن فلولا قليلة ولا ضعيفة ، ولَقد زاد فى قوتها ماأشاعوه بين الجماهير فى بلادهم من أن الإسلام قد انتهى ، وأن خليفته القوى « عمر » قد اغتيل بيد مَجوسى منهم ، وأن الفوضى شبَّت فى البلاد . .

ولقد أغرى زعماء تلك الفتنة ما علموه من أن الخليفة الجديد رجل فى سن السبعين .

ولم يكن لـ « عثمان » رضى الله عنه بطولات مسموعة مثل « خالد ابن الوليد » مثلا ، أو « سعد بن أبى وقّاص » أو « على بن أبى طالب » بل إن اسمه لم يكن يتردد بين الأسماء الجهيرة خارج المدينة ، لا لشىء إلا لأن حياءه وهدوءه كانا يَجْنحان به دوما إلى الظِّلال .

كل ذلك أغرى المتمردين بالانتقاض . .

ورأى ابن السبعين عاماً نفسه مطالباً بأن يُرِىَ هؤلاء الحمقى الخارجين ، أن أصحاب « محمد » صلى الله عليه وسلم لا يُقاس اقتدارهم بضخامة الأجسام ، ولا بما يحملون فوق كواهلهم من سنين وأعوام . . بل بما وَقَر فى قلوبهم من إيمان بالله وبوعده ، وبرسوله وبدينه .

هنالك لم يُضيع لحظة فى تفكير . . ! !

لم يتلفَّت ذاتَ اليمين ولا ذاتَ الشمال . . ! !

لم يسأل أحداً — حتى مجرد سؤال — ماذا يجب أن يَصنع . . ؟

لقد حدد له ضميره المؤمن الطريق .

وعلى الفور أصدر أوامره بإطفاء النار وقهر المرتدين .

ليس ذلك فحسب ، بل أصدر أوامره أن يجاوز الفتح تلك البقاع المتمردة إلى حدود أبعد ، حتى لا تبقى أطرافاً للدولة يسهل عليها التمرد كلما تشاء . .

ولقد اختار بنفسه قواد الجيوش التى ستقوم بهذه المهام .

ومن عَجب أن أحداً منهم لم يخسر معركة قط إذا استثنينا معركة واحـــدة .

لقد كان « عثمان » يومئذ يفكر ويُقدِّر ، ويَعزم ويَحزِم ؛ وكأنما قد حلَّ داخل إهابه شبابُ التاريخ . . ! ! !

إن هذا الخليفة العظيم الكَهْل لَيبهرُنا بمضاء عزمه وروحه خلال تلك الأحداث . فحين رأى أن ضرورات القتال واحتياجات النصر تتطلب تجهيزات بحرية وإنزال أعداد ضخمة من الجنود إلى البحر لم يتردد ، مع أنه يعلم أنَ « عمر بن الخطاب » ظلَّ طوال خلافته يرفض هذه المُخاطرة .

ولقد رأى القواد والجنود يومئذ هذا الروح المتألق من خليفتهم الشيخ فازدادوا بدورهم مضاء ومقدرة واستبسالا .

* * *

بدأ الخليفة مجابهة القوى المتمردة التى حملت السلاح ضد الإسلام ودولته ، فى « أذربيجان » و « أرمينية » اللتين نقضتا العهد الذى كانتا قد أبرمتاه من قبل . . . فسيَّر إليهما جيشاً بقيادة « الوليد بن عقبة » فردهم إلى صوابهم ، ووقَّعوا معاهدة بالشروط نفسها التى كان قد أنزلهم عليها من قبل « حذيفة بن اليمَان » رضى الله عنه .

وبينما كان الوليد وجيشه راجعين إلى الكوفة ، جاءتهم الأنباء بأنَّ الروم تتحرش بالشام . .وجاءت هذه الأنباء مشفوعة بأمر الخليفة للوليد أن يجهز عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة رجل [أمين كريم شجاع] .

ولننظر كيف تبزغ طباع الخليفة فى هذه اللفتة ؛ فهو يأمر الوليد أن يختار لقيادة هذا الجيش رجلا « كريماً » . .

إن أبا السخاء الذى لا يعرف سخاؤه حدوداً ، يتفاءل بالسخاء ، ومن ثَمَّ يتفاءل بالقائد إذا كان سخيًّا جواداً . . ! !

وأنجز « الوليد » أمر الخليفة ، فاختار الجَيش ووضع على رأسه قائداً شجاعاً سمحاً هو « حبيب بن مسلمة الفهرى » . .

سار « حبيب » بجيشه الذى لا يجاوز عشرة آلاف جندى ، بل لعلّه كان دون هذا العدد ، وأقبل الروم والترك فى جيش قوامه ثمانون ألفاً . .

وكانت زوجة القائد « حبيب بن مسلمة » مجندة فى جيش المسلمين وقبل أن يبدأ القتال سألته :

– أين ألقاك إذا حَمِىَ الوطيس وماجَت الصّفوف . . ؟

فأجابها الزوج القائد :

– فى خَيْمة قائد الروم . . أو فى الجنّة . . ! !

الله أكبر . . ! !

والْتقى الجيشان ؛ لتدور الدوائر آخر الأمر على جيش الروم والترك . .

ولم يقف « حبيب » عند هذه الجولة الظافرة ، بل سار متوغلا فى بلاد الروم ، يفتح الحصون الشاهقة حِصْناً وراء حِصْن ويفتح أبواب الإسلام والحريـة أمام جماهير عريضة طالما انتظرت أيام الخلاص . . ؟ !

* * *

وكانت مقاطعة « الرى » قد نقضت هى الأخرى عهدها وتمردت ،

فزحفت عليها قوة بقيادة « أبى موسى الأشعرى » ردت المتمردين إلى الجادّة ، وأنزلتهم مرة أخرى على العهد القديم الذى كان قد واثَقَهُم عليه « حذيفة بن اليمان » . .

* * *

والتفت الخليفة الرابض فى « المدينة » عاصمة الإسلام صوّب الإسكندرية التى جاءته أنباؤها بأن الأسطول البحرى للروم قد أغار عليها ، كما أن أعداداً هائلة من المشاة والركبان يزحفون نحوها ، فأرسل الخليفة بأوامره إلى « عمرو بن العاص » واليه على مصر ، كى يسير بجيشه إلى الإسكندرية . . وهناك أصْلَى المغيرين سعيراً ، وأنزل بالمتمردين هزيمة استأصلت شأفتهم إلى الأبد ، وفى الوقت نفسه كان « معاوية » « يفتح » قنسرين وكان « عثمان بن أبى العاص » يقهر التمرد الناشب فى « اصطخر » ويعيد فتحها من جديد . . ! !

وإلى الشمال الأفريقى بعث الخليفة جيشاً كبيراً بقيادة « عبد الله ابن سعد بن أبى سرح » وأرسل معه « عبد الله بن عمر » و « عبد الله ابن الزُّبَيْر » .

وأقبلت جيوش البربر بقيادة ملكهم فى أعداد ضخمة قدرها بعض المؤرخين بمائتى ألف مقاتل .

وكان لقاء رهيباً ، أبلى فيه المسلمون بلاء باهراً ورائعاً ، لا سيما « عبد الله بن الزبير » الذى شهدت منه هـــذه المعركة بسالة منقطعة النظير .

وكُتب النصر المبين للمسلمين ، وعاد جيشهم الظافر بما لا حصر له من الأسرى ، ومن الغنائم ، والأموال . . ! !

* * *

ورأى الخليفة « عثمان » رضى الله عنه وأرضاه أن الأسطول البحرى للروم يتخذ من جزيرة « قبرص » مُنطلَقاً لعدوانه . فقرر غزوها . .

ولكن كيف . . ؟ والمسلمون لم يمتطوا ثَبجَ البحر من قبل فى قِتـــال .

وأميرهم العظيم الراحل « عمر » كان كما أسلفنا من قبل ضد كل مخاطرة من هذا القَبِيل .

لقد تدارس « عثمان » الأمر مع بعض أصحابه ومشيريه ، واقتنع بحتمية هــذه المخاطرة . . ولأول مرة شهد التاريخ ميلاد « البحرية الإسلامية » .

أذِن الخليفة لمعاوية بغزو « قبرص » فأبحر إليها من الشام ، وأمده الخليفة بجيش آخر بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى سرح .

وأطبقت القوتان العارمتان على الجزيرة فاستسلمت ووقعت الصلح الذى فرضه المسلمون .

وفى هذه الغزوة تحققت نبوءة قديمة للرسول صلى الله عليه وسلم . .

ذلك أنه كان عليه السلام يَقيل يوماً فى دار « عُبادة بن الصامت » رضى الله عنه ، ونهض من نومه وهو يضحك ؛ فسألته « أم حرام بنت ملحان » عمَّا أضحكه . . فقال الرسول :

« ناسٌ من أمتى عُرضُوا عَلَىَّ يركبـون ثَبَج

هـذا البحر مثل الملوك على الأسِرَّة » .

فقالت : يا رسول الله ، أدعُ الله أن يجعلنى منهم . .

فقال لها الرسول : أنتِ منهم . .

ونام الرسول ثانية ، ثم استيقظ وهو يضحك . . ويقول :

« ناس – آخَرون – من أمتى عُرضوا علىَّ
يركبون ثبج هذا البحر ، مثل الملوك على
الأسِرّة » .

فقالت « أم حرام » : يا رسول الله ، أدعُ الله أن يجعلنى منهم .

فأجابها الرسول : أنتِ من الأوَّلين .

كانت هذه الواقعة ذائعة بين الصحابة أيَّام كان الرسول معهم لم يفارقهم بعد إلى الرفيق الأعلى ، وكانوا ينتظرون تأويلها ويعجبون كيف يركبون البحر مثل الملوك على الأسرَّة ! ! حتى جاءت غزوة « قبرص » هذه ، فركبوا ثَبجَ البحر لأول مرة ، وكانوا فوق سُفنهم الكبيرة الظافرة كالملوك فوق أسِرَّتهم وعروشهم . .

وفى هذه الغزوة خرج مع الجيش « عبادة بن الصامت » ومعه زوجه « أم حرام بنت ملحان » رضى الله عنهما . وتحققت نبوءة الرسول الصادق الأمين لها حين قال لها : [أنت منهم] . . .

ولعلكم تذكرون أن الرسول عندما استيقظ ضاحكاً للمرة الثانية وهو يقول :

« ناس . . آخرون من أمتى يركبون ثبج
هذا البحر » .

وسألته « أم حرام » أن يسأل الله لها كى يجعلها منهم ، أجاب الرسول قائلا : [أنتِ من الأولين] . .

وهنا تستكمل النبوءة صدقها الرائع وبهاءها الجليل ، فإن « أم حرام » لم تعش حتى تركب البحر مع الآخرين . . لقد ماتت بعد انتهاء معركة « قبرص » ودفنت هناك ، وعُرف قبرها الطاهر فيما بعد باسم « قبر المرأة الصالحة » . . ! !

* * *

وجاءت غزوة « الصوارى » لتوكد صلابة الدولة المسلمة تحت خلافة « عثمان بن عفان » فقد جمع « قسطنطين » امبراطور الروم جيوشاً لَجِبَة لم يلتق المسلمون من قبل بمثل كثرتها عدداً وعَتاداً . .

خرج قسطنطين بجيشه الجرار هذا على ظهور خمسمائة سفينة ، زاحفاً على بلاد المغرب ليلاقى بها « عبد الله بن سعد بن أبى سرح » .

وجمع عبد الله جيشه ونزلوا بسفنهم إلى البحر . والتقى الجمعان فى معركة تتحدى ضراوتها كل وصف . ودعاهم قائد المسلمين ليخرجوا إلى البر ، ويتقابل الجيشان فوق الأرض الصلبة . فأبوا ذلك . . عندئذ أسرعت فرقة من جيش المسلمين فربطت سفنهم بسفن الروم بعد أن أدنَوْها منها ثم راحوا يجتلدون بالسيوف والخناجر . . كان ضحايا المسلمين وشهداؤهم من الكثرة إلى حد فادح ، بيد أن قتلى الروم كانوا أضعاف أضعافِهم ، وانتصر المسلمون انتصاراً حاسماً ، وهرب قسطنطين بجسده الذى أدمته السيوف وأثخنته الجراح .

* * *

وهكذا سارت جيوش الخليفة تحت راياتها المنتصرة إلى كل مكان . .

فمعاوية يوغل فى بلاد الروم حتى يقرع أبواب « القسطنطينية » ذاتهـا . .

وإلى فارس ، وكرمان ، وسجستان ، وخراسان ، ومَرْو . . يزحف ابن عامر ، والأحنف بنَ قيس ، والأقرع بن حابس ، فيفتَحون ويظفرون . . ومهّدت الأرض لزحف المسلمين الجَسور حتى بلغوا السودان والحبشة فى الجنوب ، والهند والصين فى الشرق .

والخليفة الكهْل الذى كانت سِنّه قد بلغت السابعة والسبعين رابض فى المدينة ينعم بفتح الله عليه وعلى جيوشه .

ومع الجيوش العائدة من معاركها بالنصر ، كانت الغنائم والأموال تتدفق على العاصمة وكأنها أبواب السماء فُتِحتْ بماء مُنْهَمِر . . ! !

لقد أخلَفَتْ كُلَّ الظنون ، تلك السنوات العظيمة المتألقة ، للخليفة الذى أساء أعداء الإسلام به الظنون ! !

ولم يشغله ذلك الجهاد الموصول ، والغزوات المتلاحقة عن اهتمامه بالعِمارة .

فراح يُجمِّل المدينة ، ويزيد فى بناياتها وعمارتها ، مبتدئاً بمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فوسَّع فيه وبناه بالحجارة المنقوشة ، واتخذ عُمُدَه من الحجارة المرصَّعة .

ولئن بهَرنا الحزم والتوفيق اللذان صاحبا « الخليفة عثمان » فى مجابهته الحاسمة لقوى الشر الزاحفة على الإسلام تريد أن تطفئ نوره .

فلسوف يبهرنا بصورة مماثلة أو تزيد، إنجازه الرائع العظيم فى جمع المسلمين على مصحف واحد ، حُفِظ القرآن بين دفَّتيه إلى يوم الدين .

* * *

نحن نعلم أن القرآن كانت تتنزّل آياته على الرسول الأمين مفرقة وَفق ظروفٍ وأسباب نزولها ، وكان مَن بعض أصحاب الرسول نَفر اختارهم ليكتبوا الآيات المنزلة أولا ، فأوّلا .

وكان الصحابة يتناقلون الآيات المنزلة ، يعتمد بعضهم على قوة ذاكرته فيحفظها ، ويسطرها بعضٌ آخر حيث يحتفظ بها مكتوبة .

وفى عهد الخليفة الأول « أبى بكر الصديق » رضى الله عنه قرر بمشورة من « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه أن يجمع القرآن – فعهد إلى الصحابى الجليل « زيد بن ثابت » بالإشراف على هذه المهمة المقدسة . وكان « زيد » أقدر المسلمين على ما نُدب إليه ؛ إذ كان يحفظ القرآن كله . . كما كان أكثر كتاب الوحى ملازمة للرسول .

وجمع « زيد » القرآن باذلا من وعيه ويقظته وأمانته جهداً خارقاً ، مستعيناً بعدد كبير من الصحابة الذين كان بعضهم يحفظ القرآن وبعضهم يحتفظ به مسطوراً .

وهكذا صارت الآيات التى كانت متفرقة فى صدور الرجال أو على ألواح الكتابة مصحفاً واحداً مُرتّب السُّور والآيات ، معروف البَدء والمنتَهَى .

وحفظ المصحف عند « أبى بكر » ومن بعده انتقل إلى « عمر »

* * *

خِلال عهد « عمر » شرعت الفتوحات الإسلامية تطوى البلاد طيًّا ، وآل إلى الإسلام كثير من الأرض التى كان يجثم فوقها طغيان فارس والروم .

وخلال عهـد « عثمان » بلغت الفتوحات آمادًا أبعد ، وآفاقاً أرحب .

ومع هذا الفتح العظيم فى عهد « عمر وعثمان » كان الإسلام يستقبل شعوباً مختلفة اللسان . . ونما المجتمع الإسلامى نموًّا هائلا ، انتظم بين موجاته تبايُناً كثيراً .

وكان أسرع مظاهر هذا التبايُن فى الكشف عن نفسها وعن عواقبها — اللَّهجات .

ففى بعض الغزوات التى اشترك فيها الصحابى الجليل « حُذَيْفة ابن اليمان » راعَتْه الطرائق الكُثر التى يُقرأ بها القرآن .

صحيح أن عرب الجزيرة العربية أنفسهم كانت لهم لَهَجات مختلفة ، بيد أن لغة قريش التى نزل القرآن بها كانت قد استقطبت معظم تلك اللهجات وبوتقتها فى لغة واحدة صارت « اللغة الأمّ » وحتّى حين كان يندر حدوث خلاف حول قراءة بعض آى القرآن الكريم فى أيام الوحى ، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفصل فى الأمر بإيثار قراءة واحدة حيناً ، أو بإقرار القراءات المختلَف حولها حيناً آخر .

أما بعد الفتح الكبير ، وبعد أن أصبح القرآن كتاب شعوب كثيرة ، لكل منها لهجتُه ولسانه ، فقد أمسى الاختلاف فى قراءته مصدر خطر عظيم ، وهو خطر يهدد وحدة الأمة الجديدة المنتشرة

فى الأرض أكثر مما يهدد القرآن ذاته . . فالقرآن تكفّل الله بحفظه حين قال سبحانه :

« إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ، وإنَّا لَـهُ لَحَافِظون » .

ولقد ظهر هذا الخطر فى الواقعة التى شهدها « حذيفة » إذ نشب خلاف مُفزع بين أهل الشام وأهل العراق . .

كان أهل الشام يقرأون على قراءة المقداد بن الأسود وأبى الدرداء . .

وكان أهل العراق يقرأون على قراءة عبد الله بن مسعود وأبى موسى الأشعرى .

وتعصَّب كل من الطائفتين لقراءته ، وكاد الخلاف يُمسى نزاعاً ، فصِداماً .

ولم يكد « حذيفة بن اليمَان » يفرغ من تلك الغزوة التى كان يشارك فيها بجهاده حتى امتطى راحلته ، يُسابق الريح إلى المدينة : وهناك وضع القضية بين يدى الخليفة الراشد ، مختتماً حديثه بقوله :

« يا أمير المؤمنين . .

« أدرِكْ هذه الأمة قبل أن تختلف فى كِتابهـا كما اختلف الذين من قبلهم فى كُتُبهم » .

ولم يتوانَ الخليفة لحظة ، فقد أرسل من فوره إلى مَن كان بالمدينـة من أصحاب الرسول ، وشاوَرهم فى الأمر ، ثم قرر أن يكتب المصحف على حَرْفٍ واحد . وأن يجمع المسلمين فى عصره وإلى الأبد على قراءة

واحــدة تكــون هى القراءة « الأمّ » حتى يدفع هذا الاختــلاف المنذِر بالسوء .

واستدعى إليه « زيد بن ثابت » الذى قام بجمع القرآن فى عهد « أبي بكر » و « سعيــد بن العاص » و « عبد الله بن الزبير » و « عبد الرحمن بن الحارث بن هشام » وشرح لهم مهمتهم وأوصاهم إذا اختلفوا فى شيء أن يكتبوه بلغة قريش .

وجاءهم الخليفة بالمصحف الأول ليكون دليلهم وأساس عملهم وكان « عمر » قد أودعه قبــل استشهاده عند ابنته « حفصة » رضى الله عنهما .

وعند ما أنجز الأصحاب عملهم الجليل ، أمر الخليفة أن يُنسخ عدد من المصاحف ، وأرسل لكل إقليم من أقاليم الدولـة مصحفاً .

ومضى الكاتبون فى كل إقليم ينسخون لأنفسهم ولغيرهم مصاحف أخرى من هذا المصحف الجامع الذى سُمّى يومئذ ولا يزال يسمّى إلى يومنا هذا « مصحف عثمان » .

على أن المشكلة لم تُحلّ تماماً بظهور « مصحف عثمان » إلى الوجود .. فقد بقى منها طرَف ، كان أشدّ أطرافها حساسيةً وأكثرها إحراجاً .

فقبل أن يتم بُزوغ هذا المصحف الجامع ، كانت هناك مصاحف أخرى لنفر من الصحابة ، وكان بينها اختلاف فى بعض الآيات نطقاً ورَسماً ، وكان الرسول عليه السـلام قد أقرّ أكثر هـذه القراءات حين قال :

« أُنزِلَ القرآنُ على سبعة أحرُف »

الأمر الذى نَتج عنه فيما بعد ظهور القراءات السبع المعروفة وكان « عثمان » فى إرادته حسم الخلاف والاختلاف ، وفى إيمانه المطلق بضرورة هذا الحَسْم ، لا يجد أمامه سوى اتجاه واحد هو جمع المسلمين جميعاً على مصحف واحد ، هو هذا الذى أنجزَه وأقرَّه . .

فماذا عساه يصنع بالمصاحف الأخرى ، وبالألواح التى كانت لا تزال موجودة عند بعض الصحابة حاملة عدداً من الآيات .

لقد جمعها جميعاً وأنْهى مُهمتها . . مفسحاً مكانها للمصحف الواحد الجـامع يلتقى المسلمون حول آياته المباركات عَبر القرون تِلْوَ القرون .

* * *

هكذا أعطى « عثمان » عزمه الرشيد لمسئولياته الجِسام .

وملأ بصدقه وباقتداره وبإقدامه فراغاً كان يمكن أن يتحول إلى هُوَّة فاغرة تشدُّ إلى قيعانها الغائرة البعيدة كثيراً من مُقدَّرات الدين ومصاير المسلمين .

ولكن ، هل كانت ريح الخلافة تجرى رُخاءً خلال تلك السنوات التى ملأ الخليفة فيها دُنيا الإسلام فتحاً وخيراً . .

لعلها كانت كذلك لوقت قصير ، قد لا يجاوز العامين أو الثلاثة . .

أمـا ما بقى بعـد ذلك من سنـوات الخلافـة الطـوال ، فقد تحولت الريح الباردة الهادئة إلى عاصفة ، أخذت تتجمع شيئاً فشيئاً وينادى بعضها بعضاً حتى تحولت إلى إعصار كُتب على الخليفة الشيخ

أن يواجهه وحده فى محنة هبطت بها شراسة المتآمرين إلى السفح . . وارتفع بها تسامح الخليفة إلى القِمَّة . . ! !

وقد آن لنا الآن أن نصحب التاريخ إلى تلك السنوات التى شهدت نشأة وتطوُّرَ ونهاية الأحداث التى لا تزال ذكراها تفجع الأنفس وتُروِّع الأفئدة ؛ برغم احتجابها وراء أربعة عشر قرناً من الزمان ! !

الفصل الرابع

السّنوات الصّعبة

إن التغيير الهائل الذى أحدثه الإسلام فى خريطة العالم المحيط به ، وفى عقائده ونظمه ونفسيته لم يكن ليمرّ دون أن يعكس آثاره بصورة أو بأخرى على الإسلام نفسه ، ممثَّلاً فى دولته وفى مجتمعه . وممثلا بصفة خاصة فى القادة والروَّاد الذين حملوا أكثر من سواهم أعباء هـذا التغيير العظيم .

ولقد كان اغتيال الخليفة الراشد العظيم أمير المؤمنين « عمر ابن الخطاب » أُولىَ ظَواهر هذا الانعكاس الخطير .

كان نذيراً واضحاً بأن ردود الفعل لتلك الفتوحات الإسلامية الطامية ، قد بدأت تنفذ قانونها وتفرض سلطانها .

لقد مزّقت الفتوحات العريضة يومئذ مُلك فارس والروم . وبقيت نقمة الفلول المتبقية من السلطات المنهـارة ناراً تشحذ ضرامها تحت الرماد .

وجاء الفتح بمشاكل الثراء الطارئ والدنيا الحافلة بالإغراء ،

والاختلاط الهائل بين أجناس وأمم وتقاليد .

كان لا بد لهذا كله أن يعكس على الفاتحين ظلاله . .

ولقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يستشِفّ من وراء الحجُب تلك الانعكاسات المنذِرة .

يقول أسامة بن زيد رضى الله عنهما :

« أشرفَ النبي صلى الله عليه وسلم على
أطُم – أى مُرتَفع – من آطام المدينة
وقال : هل ترون ما أرى . . ؟
قال أصحابه الذين كانوا معه : لا . .
قال : فإنى لأرى مواقِع الفتن خلال
بيوتكم كمواقع القطر » . .

ويقول عبد الله بن عمر . . رضى الله عنهما ، قال رسولِ الله صلى الله عليه وسلم :

« إذا مشت أمتى المطَيْطاء – أى الخيلاء –
وخدمتها أبناء الملوك ، فارس والروم ،
سُلط شرارها على خيارها » . .

وهو بهذا ، يشير إلى ردود الفعل المحتومة لفتحهم الواسع العظيم ، ويهيئ نفوسهم لتأخذ حِذرَها ، ولتكون مستعدة لمواجهة الأحداث المقبلة بما سلّحها الإسلام من فضائل وثبات .

* * *

والحق أن الفتن التى تعرض لها الإسلام والمسلمون فى عهد الخليفة

« عثمان » والتى فرضتها حركة التاريخ عليه فرضاً ، دون أن تكون له يد فى إزجائها ، ما كان فى وُسع أحد أن يدفعها .

صحيح أنه ربما كان من الممكن تخفيف ضراوتها ، أو تأجيل هُبوبهـا . أما دَحْضُها بصورة شاملة فما نحسب ذلك كان فى مستطاع أحد . .

لقد كانت تلك الأحداث على جسامتها جزءاً من حركة الزمن الإنسانى والتطور التاريخى . وكانت مظهراً لِسنّة تاريخية فرضت نفسها على كل الحركات الكبرى عبّر تاريخ الإنسان .

ولقد أرادت مقادير « عثمان » له ، أن يَصطلى بمسئوليتها مرتين . .

الأولى : عندما اختارته المقادير ليكون الخليفة الذى يشهد عهدُه وأيامه ، مقدم الفتن وإنجاز المؤامرات .

والثانية : عندما حُمِّل أوزار تلك الأحداث التاريخية واعتُبر مسئولا عنها ! !

ومن الظلم للخليفة ، وللحقيقة أيضاً ، أن نرى فى الخلاف الذى قام بينه وبين نفر من أصحابه ومن المسلمين الوافدين من بعض الأقطار جوهر الفتنة ، وشكلها الوحيد .

فما كان هذا الخلاف ، وما كانت الأخطاء التى أُخذت على الخليفة يومذاك سبب الفتنة الضارية ، بل كانا — الخلاف والأخطاء — واحدة من نتائج كثيرة لمؤامرات بعيدة الغوْر ، أحكمتْ تدبيرها قوَى أجنبية ، مستعينة بعناصر عميلة دخلت الإسلام خِلْسَة ؛ لتكيد له وتخرِّب فيه . .

ولو أن الأخطاء التى عُزيت إلى الخليفة « عثمان » كانت سبب الفتن الهُوج التى تعرض لها الإسلام ؛ فما الأخطاء . . إذن – التى كانت سبباً فى اغتيال أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » . . ؟ ؟

لقد كان مقتل « عمر » كما قلنا الرصاصة الأولى التى أطلقتها فى المعركة الخفِيَّة ، قُوَى الشر المتحالفة ضد الإسلام .

وما عرف الناس لأمير المؤمنين « عمر » خطأ واحداً ، فضلا عن أخطاء تبرر اغتياله الأثيم ! !

ولسنا قادرين – مهما نتسامح – على أن نعتبر جريمة اغتياله جريمة فردية .

وحتى لو كانت كذلك ؛ فإن امتدادها لم يكن عملا فردياً ، بل صار عملا جَماعياً شاركَتْ فيه جميع القُوى التى خضَد الإسلام شوكتها .

فاليهود الذين أُجْلوا عن المدينة ، وشتَّتهم غدرهم فى البلاد .

والامبراطورية الرومانية التى فرط الإسلام عقدها ، وكنس نفوذها بعيداً عن البلاد التى كانت تحتلّها وتستعمرها ، ودفعها داخل حدودها الضيقة . .

والامبراطورية الفارسية التى صنع بها مثلما صنع بالروم ، والتى خسرت كل مصالحها وكُنوزها وأساطين قادتها العسكريين .

كل هؤلاء . لم تجفّ دماء أحقادهم على الإسلام وعلى دولته الناهضة فى شموخ عظيم . ولم يهدأ نَعيب الثأر فى أنفسهم إلا ريثما تواتيه الفرصة . فى يوم ، راحوا يُعِدُّون له ، ويتهيَّأون .

ولقد جاءتهم الفرصة فى مقتل « عمر » أمير المؤمنين .

من أجل ذلك رأينا التمرد المسلح يجتاح كثيراً من البلاد التى كانت الامبراطوريتان قد خسرتاها فى حروبها السابقة مع الإسلام .

ولم يكن تمرداً داخلياً من أهل تلك البلاد الذين كانوا – كما أسلَفْنا من قبل – قد فرحوا بمقدم الإسلام إليهم فرحاً عظيماً ، حتى الذين لم يعتنقوه منهم . . إنما كان تحريضاً من الروم والفرس لبعض العناصر التى أفقدها الإسلام نفوذها وسلطانها ، كما كان فى حالات أخرى هجوماً مباشراً من جيوش الروم والفرس على تلك البلاد .

وكما تحرَّك هؤلاء من الخارج ، فقد تحرَّك اليهود من الداخل . . ولم يكن عبثاً ولا صُدْفة أن يَفد من اليمن إلى المدينة فى عهد « عثمان » يهودى يقول : إنه درس الإسلام وأحبه ويريد أن يعلن إسلامه ويأخذ مكانه فى صفوف المؤمنين ، ثم يلعب هذا اليهودى تحت قناع إسلامه ، أخطر وأفدح دور فى تمزيق وحدة المسلمين وتجهيز الفتنة المسلحة التى أوْدت بحياة الخليفة الشهيد – ذلكم الرجل هو : عبد الله بن سبأ ، الذى سنشهد طرفاً من نشاطه المخرِّب عما قريب .

لم تكن – إذن – المآخذ التى جُوبِه بها الخليفة والتى سنناقشها فيما بعد ، سبب الفتنة ولا قِوامها – إنما هى المؤامرة العابثة ضد الإسلام كانت تنسج خيوطها من بعيد ، حتى إذا وَاتتْها الفرصة وساعدها الزمن ، قفزت فوق مسرح الأحداث لتلعب دورها جهرة وعلانية .

ولكى تكتمل جوانب الصورة الصحيحة للقضية ، علينا أن نعود بالحديث إلى عهد قديم .

هناك صورة غامضة وغير واعية تغشى إدراك كثيرين منا حينما نفكر أو حينما نتصور الجزيرة العربية فى ماضيها السحيق ، فنحسبها مجرد مَتاهَة عريضة فى الصحراء ، يسكنها ناس معزولون عن عالمهم لا يهتمون بأحد ، ولا يهتمُّ بهم أحد . .

ونتصورها – عند ما جاءها الإسلام – مجرد قبائل مُتنائية ، وقُرًى متباعدة ، جاثية فوق الرمال ، تتوسطها أُم القُرى « مَكة » التى تغدو قوافل تجارتها وتروح ، بينها وبين الشام ، ثم هى بعد هذا لا تهتمُّ بأحد ، ولا يهتمُّ بها أحد . . ! !

وهذه الصورة فضلا عن مجافاتها للصواب ، فإنها تعزل إدراكنا وفهمنا عن المقدمات الهامة التى لا نستطيع بدونها تفسير الأحداث الهائلة التى شهدتها شبه جزيرة العرب قبل الإسلام ومع الإسلام .

ولكى ندرك الصورة الصحيحة ، لن نحتاج إلى الإيغال فى الزمن البعيد ، حيث قامت فى جنوب الجزيرة حضارات المعِينيّين ، والحضرمَوتيّين ، والسبئيين ، الذين جعلوا بلادهم جِناناً عن يمين وشِمال .

وحيث قامت فى شمال الجزيرة مدينة « البتْراء » تسيطر على طريق القوافل بين الشمال والجنوب ، وتتشامخ حصونها المنيعة ؛ حتى تدحر على أبوابها عام ٣١٢ قبل الميلاد جيش « أنتيجونوس » أحد خلفاء الإسكندر الأكبر ، وتزدهر فيها حضارة عربية رائعة وباهرة .

وحيث قامت « تَدْمُر » التى أنشأتها فى بلاد الشام بضع قبائل عربية ، خرجت من جزيرة العرب فنهضت بحضارة سامقة وشادت

قوةً عسكرية جبارة مكنتها من أن تنزل بالفرس هزيمة منكرة ، وتستولى منهم على سورية ، وبلاد ما بين النهرين عام مائتين وستين بعد الميلاد . مما جعل إمبراطور الروم آنئذ يتخذ من « أُذَيْنَة » حاكم « تدمُر » نائباً له فى سوريا ومصر وأرمينية . . ! !

وحيث خرج من اليمن فى جنوب الجزيرة العربية نفر من القحطانيين، فأسسوا مملكة « اللَّخميين » فى العراق . .

كما خرج منهم نفرٌ آخرون أسَّسُو مملكة « الغَساسنة » فى سوريا .

أقول : لن نحتاج إلى الإيغال وراء ذلك التاريخ الذى يكشف عما كان لشبه الجزيرة العربية من حياة وأهمية وخطر ، وما كان لها وللقبائل النازحة منهـا صوب العراق وسوريا من علاقات متكافئة فى أحايين كثيرة مع الامبراطوريتين الكبيرتين — فارس ، والروم . .

وسيكون حسبنا إلقاء نظرة سريعة على شبه الجزيرة العربية وعلى مكانتها وعلاقاتها منذ بزوغ الإسلام ، أو قبل ذلك بقليل .

فقبيل الإسلام كانت الجزيرة العربية موضع اهتمام القريبين إليها والبعيدين منهـا ، على الرغم من عدم وجود أى سلطان سياسى لها يومذاك .

وعلى الرغم من أن مطامع الغزاة كانت تولى وجهها دائماً شطر الجنوب حيث بلاد اليمن باستراتيجيتها وخيراتها ، إلا أن الشمال كان لا يغيب عن اهتمامهم كذلك ، فهناك مكة بثرواتها وازدهارها . . وفى مكة « الكعبة » التى تهوى إليها أفئدة العرب من كل مكان ، وتهيئ « لـ » مكة نفوذاً رُوحيًّا لا يُقاوم . .

من أجل ذلك نرى « أبرهة » نائب امبراطور الحبشة يومئذ يقود جيشاً لجِباً لغزو مكة وهـدم الكعبة ، وذلك بعـد أن عجزت كنيسته التي بناها فى صنعاء عن اجتذاب العرب إليهـا كما كان أبرهة يظن ويتوهم .

وكانت « مكة » كطريق للقوافـل ، وبتجارتها الواسعة مع الشام يعيش أهلها فى اهتمام متبادَل مع العالم الخارجى .

ونَمَت هذه الاهتمامات المتبادَلة مع ظهور الإسلام ، فنرى النبي عليـه السلام يختـار الحبشة دار هجرة لأصحـابه الذين اضطهدتهم قريش .

كما نراه – عليه الصلاة والسلام – يكتب كُتبه ، ويُرسل مبعوثيه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام .

فبعث إلى قيصر الروم ، وامبراطور الفرس ، ونجاشىِ الحبشة ، وعزيز مصر ، وإلى رؤساء عُمان ، والبحرين ، واليمامَة والشام .

وحين أوقع الفرس بالرومان هزيمة منكرة ، واستولَوا على مستعمراتهم فى آسيا ، كما دخلوا مصر ، وقرعوا أبواب القسطنطينية ، تغشَّى المسلمين فى المدينة همٌّ عظيم ، فقد كانوا حسبما علمهم دينهم يتعاطفون مع أهل الكتاب ، وكان الرومان نصارَى ، فأحزن المسلمين أن ينتصر عليهم عُبَّاد النار من الفرس ، ونزل الوحى يطمئنهم ويحمل لهم عَزاء وبُشرى فى سورة سميت باسم « سورة الروم » . .

« آلم . . غُلِبَت الرُّومُ فِى أدْنَى الأرْضِ
وهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغلِبُونَ فِى بِضْعِ

سِنِينَ . لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ .
وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ، يَنْصُرُ
مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَعْدَ اللَّهِ ،
لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لا يَعْلَمُونَ » .

إلى هذا المدى كان اهتمام المسلمين بالعالم الخارجى وتلاحُمُهم مع مشاكله وتطوُّراته .

ولقد صدقت آيات الله وتحقق وعده ، فلم تمض سوى سنوات قليلة حتى أنزلت جيوش الروم بجيوش الفرس هزيمة منكرة ، واستردّت الامبراطورية الرومانية من « فارس » ما كانت قد استولت عليه فى حربها السالفة .

بيد أن قيصر الروم لم يلبث وقد أسكره انتصاره على الفرس أن تنمَّر للمسلمين ، وخشِيَ على مُلكه من قوتهم المتعاظمة ، فجمع صفوف جيشه فى الشام ، وقرر الهجوم على الجزيرة العربية .

وهنا نلحظ المزيد من اهتمام الرسول والمسلمين بالعالَم الخارجى ، ونشهد سلامة تقديره عليه السلام لكل موقف يُزجيه ذلك الاهتمام .

وهكذا رأيناه يرفض التسامح تِجاه هذا التهديد الموجَّه لأمته وبلاده ، فيخرج فى أيام بالغة القيظ والعسرة ليلاقى الروم بكتائب الإسلام — هناك عند حدود الشام فى غزوة « تَبوك » التى لم ينشب فيها القتال ؛ إذ آثر قيصر الروم السلامة ، ورجع من حيث جاء .

كما نراه عليه السلام يوصى فى مرض موته قائلا :

« أَنْفِذُوا بَعْثَ أُسامة »

وكان « أسامة » قد وضعه الرسول على رأس جيش وُكلت إليه مهمة زجر أولئك المتربصين بحدود البلاد .

* * *

لم تكن الجزيرة العربية إذن تعيش فى تِيهٍ ولا فى خَواء .. لا قبلَ الإسلام ولا بعد بزوغه ، بل كانت دائماً فى بؤرة اهتمام العالم الخارجى ، كما كان العالم الخارجى فى مركز اهتمامها .

حتى إذا جاء عهد « عمر » وزحفت جيوش الإسلام حاملة رايات الحق والبذل والهدى والخير ، وتهاوت تحت سنابك خيلها امبراطوريتا الروم والفرس ، كانت الجزيرة العـربية التى أصبحت « الوطن الأم » للإسلام قد فرضت اسمها والاهتمام بها على كل فم ، وعلى كل سَمْع ، وعلى كل فؤاد .. !

صار المسلمون يومئذ ، الزاحفون من مدينة الرسول إلى عالم الشرك والضلال فى كل مكان ، حديثَ العالم الخارجى بأسره . وموضوع اهتمامه الوحيد .

وعلى الرغم من أن القوة العسكرية والسياسية للروم كانت قد تحطمت أمام جيوش الإسلام ، إلا أن سعير الثأر لم يخمد ولم ينم فى صدور الذين ظلُّوا أحيـاء ، ممن كان لهم فى ديارهم وبلادهم نفوذ وسلطان .

ففى « فارس » كما فى « الروم » كان الكهنة ، والقناصلة ، وأشراف البلاط ، والإقطاعيون مالكو الأرض ، ومحتكرو التجارة

والثروات . . كان هؤلاء جميعاً يحملون للعرب والمسلمين حقداً يضاهى ما فقدوه من كنوز ، ونفوذ ، وسلطان .

وكان هناك فى الجانب الآخر ، يهود بنى قَيْنُقاع وبنو النَّضير الذين نُفُوا إلى الشام ، فاتخذوا منها حتى بعد الفتح الإسلامى مركزاً لصنع الفتنة وتصديرها إلى كل مكان تناله أيديهم ومكائدهم .

كانت مؤامرات هؤلاء وأولئك ضد الإســلام تتجمع كالسيل الطـامى . .

وكان « عمر » بكل يقظته ، والدولة المسلمة بكل عنفوانها ، يقفان سَدًّا منيعاً ، ورادعاً .

فلما مالَتْ شمسُ « عمر » للمغيب ، وجدت المؤامرات الضارية المسعورة لنفسها منفذاً عريضاً ، فكانت الحروب المسلحة التى واجهت المسلمين فى بقاع كثيرة أوَّلَ خلافة « عثمان » ، والتى تحدثنا عنهـا من قريب .

حتى إذا أحسنَتْ جيوش الإسلام تأديب المتآمرين وحطمت جيوشهم على غزارتها وخيَّبت إلى الأبد آمالهم فى تَسَوُّر حدود الدولة المسلمة الشامخة ، ألْقَوْا سلاحهم صاغرين مدحورين . . بيد أنهم لم يُلْقُوا ما فى صدورهم من ضغن مسموم . بل ازدادت أضغانهم سُعاراً ولَهَباً . وقرروا أمام إخفاق حملاتهم العسكرية ، أن يلجأوا إلى أسلوب آخر ، هو الائتمار بالدولة من الداخل . والتسلُّل بالفتنة إلى الصفوف الأولىٰ بين قادة المسلمين من كبار أصحاب الرسول ، ثم بين صفوف الجماهير فى أقاليم الدولة البعيدة والقريبة . .

ولقد كان ذلك العبء المُبهظ الثقيل مُدَّخراً للرجل الذى سيتلو «عمر» فى الخلافة :

وكان هذا الرجل «عثمان» رضى الله عنه وأرضاه .. دفعته مقاديره ليحمل فوق كاهله مسئولية هذه «السنوات الصعبة» فى تاريخ الإسلام كله .

وإنا لنعترف بأن فى وصف تلك السنوات بالصعوبة وحسب ، تبسيطاً كبيراً لخطرها .. فالحق أنها كانت أكثر من «صَعْبة» بل أكثر من «رهيبة» ...

* * *

تنطوى البلاد المفتوحة دائماً على مشاكل تُؤرِّق الفاتحين .

وعلى الرغم من أن الإسلام كان ينشر رحمته وعدله على تلك البلاد فَوْرَ فَتْحها .. وعلى الرغم من أن فتحه لها كان تحريرًا لشعوبها من طغيان مستعمرين عُتاة ، فُرساً كانوا أو روماناً .. إلا أن ذلك لم يقض على مشاكل الفتح كلها ، وإن كان قد قضى على الكثير منها .

بيد أن البقية الباقية من المشكلات أخذت تنمو وتتضخم مع مرور الأيام وتقادم العهد .

* فمثلا ، بعد أن كانت شعوب البلاد المفتوحة تَشرُف وتسعد بأن يكون وُلاتُها من أصحاب رسول الله ، الذين يختارهم أمير المؤمنين فى المدينة ، ويوفدهم لحمل مسئولية الولاية ، أخذ بعض هذه الأقاليم ، يتساءل أهله أو بعض أهله : لماذا لا يكون وُلاتُنا منا أنفسِنا .. ؟ ولماذا مِن قريش أو من المدينة .. ؟ !

وكان لبعض هؤلاء مناورات كاد يضجّ منها « عمر » نفسه برغم حزمه وصرامته . وحسبنا واحدة منها تبعث الأسَى بقدر مـا تُفجِّر الضحك . . يوم سأل أهل الكوفة أمير المؤمنين « عمر » أن يعزل عنهم واليهم الذى كان من خيار الصحابة وأجِلاَّئهم ، مُبرِّرين طلبهم هذا بقولهم : [إنه لا يُحسِنُ يُصَلِّى] ! ! !

* وبعد أن كان أهل تلك الأقاليم فى بَهَرٍ عظيم بما أفاءه الإسلام عليهم من عدالة وفضل ، حتى رأوا دولته المنتصرة تترك لكل زارع أرضه ، ولكل تاجر متجره ، بل لقد حرَّمت على رجالها أن يأخذوا من ذمِّىٍّ شِبراً من أرضه ولو كان ذلك شِرَاء . وبعد أن بهرتهم الحماية والأمْن اللذان أفاءهما عليهم الإسلام ، نظير خراج عن أملاكهم التى لم يمسَسْها سوء ، عادوا أو عاد بعضهم يتساءل : ولماذا الخَراج . . ؟ !

* وبعد أن كانت روح الإسلام تُدثِّرهم جميعاً ، كأمَّة واحدة . حتى الذين لم يسلموا وآثروا البقاء على دينهم ، وعاشوا فى الدولة مُواطنين تربطهم بها عهود وذِمَم . . حتى هؤلاء صهرتهم روح الإسلام . فلم يُشكِّلوا بين وحدتها الجامعة الصاهرة نُتُوءًا ولا نشازاً . نقول بعد أن كان ذلك كذلك ، عادت العصبية تَذِرُّ قَرْنها ، والقَبَلية ترفع رأسها ، والشعوبية تقول : ها أنا ذا . . ! !

* وبعد أن كانت سياسة « أبى بكر وعمر » تقوم على استبقاء زعماء الصحابة وكبارهم بالمدينة ، لايغادرونها أبداً ، تغيَّر المنهج فى عهد « عثمان » . . فانتشر بعضهم فى الأرض . وهكذا توزَّع مركز الثِّقَل الذى كان موحَّداً بالمدينة ، وفُتِن كل إقليم بزعيم . .

* وبعد أن كانت نِعم الحياة وطيباتها خاضِعةً لإرادة الترفُّع والزُّهد ، راحت أسباب كثيرة تعمل عملها فى تطويع الأنفس لسلطان الدنيا وإغراء الترف : وعلى الرغم من أن صَفْوةً كبيرة من أصحاب الرسول ظلوا مستمسكين بعزوفهم وزهدهم ، فإن المجتمع الإسلامى وقد غمره الرخاء وغطّاه الثراء ، راح يتخطى كوابح الضمير المتصوِّف آخـذاً من طيبات الحيـاة فوق حاجته ، وناهِلاً من مناعمها بغير حساب . . ! !

هذه العوامل التى ذكرناها — تُشكِّل ، أو قولوا : تُصوِّر « المناخ » الذى ستعيش فيه السنوات الصعبة بكل مشكلاتها وأزماتها .

وهذه العوامل كلها كانت — برغم خطورة عواقبها — صورة لطبائع الأشياء ، فليس من شِيم الحياة البشرية مهما سَمَت نوازعها وسَيْطر تُقاها أن تظل على وتيرة واحدة ، ولا أن تتجمَّد فى أنماط واحدة .

ونستطيع أن نلخص كل هاتيك العوامل فى وصف واحد هو « التوتُّر » . .

ولقد كان هناك ظروف تاريخية ، واجتماعية ، ونفسية ، تجعل هذا التوتر محتوماً .

كما أنه كان من الممكن أن يتحول هذا التوتر إلى طاقة صاعدة ، ومَخاض سديد ، تتحول خلالهما الأزمات المزعجة إلى حُلول سعيدة ، وتلتقى مشيئة العصر بمشيئة التطور فى غير فتنة ومن غير سوء .

أجَلْ . . كان ذلك ممكناً لو لم تتقدم القوى الشريرة بكل ما يملأ أفئدتها من حقد ، وبكل ما يفعم عزمها من تربص وإصرار .

هذه القُوى المتمثلة – كما ذكرنا من قبل – فى الطوائف التى حطم الإسلام نفوذها الطاغى ، وسلبها امتيازاتها الظالمة .. ولم يكن يخلو من هؤلاء بلد ولا مكان . والمتمثلة كذلك فى القبائل اليهودية التى لم تكُفّ لحظة عن الكيد للإسلام منذ هاجر الرسول وأصحابه إلى المدينة .

لقد شحذت كل هذه القُوَى أنيابها فى عهد « عثمان » وركّزت جميعها على تغذية الشكوك ، وتوهين الولاء للدولة ، وتصعيد الأزمات ، وتحويل « التوتُّر » من طاقة تتلمّس الطريق نحو الأفضل والأمثل ، إلى قوّة هدّامة ، وفوضى مُخرِّبة .. ! !

* * *

فى ذلك الحين ، وفى ظروف مُريبة ، وفَد على المدينة من اليمن يهودى اسمه – عبد الله بن سبأ – وكُنيتُه – ابنِ السوداء – حيث انتحل الإسلام .. ثم انتحل الغيرة الشديدة على قِيَمِهِ وحُرُماته ..

وفى المدينة ألقى سمعه المرهف لكل كلمة وكل نبأ ..

سمع نقداً بريئاً يوجهه الصحابة لبعض الأخطاء فراح يتتبعه . ليجمع من شتاته صحيفة اتهام ! !

ومضى يدرس فى صمت ودهاء كل جوانب الحياة فى المدينة ، ويفحص مواطن الضعف والقوة ، ويتسمَّع أخبار الأقاليم والأمصار ، ويتبين أقدار الصحابة وحظ كل منهم من النفوذ والمكانة .

حتى إذا جمع مادّته ، وعرف طريقه ، وأتمَّ رسم خُطّته ، شرع على الفور فى العمل والإنجاز .

وأدرك – ابن سبأ – أنه لكى ينشر الاضطراب فى الدولة والأمة ، عليه أن يوجه مُبادرته الأولى إلى الخليفة ذاته ، وإلى شرعية منصبه كخليفة للمسلمين ، ولكى يتيسر له ذلك ، لا بد أن يرفع فى وجه الخليفة شخصية من الصحابة تضاهى الخليفة فى جلاله وأسبقيته . .

هنالك بدأ نفَثاته المسمومة بهذه العبارة :

« إن لكل نبي وصياً ، وإن « علياً » وَصِيٌّ « الرسول »، ولقد وثب « عثمان » على أمر هذه الأمة ، وأخذ الحق من صاحبه » . . ! !

وراح يُزكّي دعوته هذه ، بطائفة من الأحاديث التى كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أطرَى بها « علياً » وزكّاه : مثل قوله عليه السلام :

« مَن كنتُ مولاه ، فَعَلِيٌّ مولاه » .

ومثل دعائه عليه السلام بشأن على :

« اللهم وَالِ مَن وَالاه ، وعَادِ مَن عاداه » .

وعلى الرغم من أن الإمام « علياً » كرَّم الله وجهه لم يكد يسمع دعوة – ابن سبأ – حتى عنَّفه وسفَّهه ، وحذّر المسلمين من خبث طويته ، وسوء تدبيره . .

نقول على الرغم من ذلك ، فإن – ابن سبأ – ظلَّ سادراً فى خُطته ، وانطلق كالريح السَّموم يشعل نيران الفتنة فى أقطار الإسلام ، فرحل إلى البصرة . . ثم إلى الكوفة . . ثم إلى الشام . . ثم إلى مصر التى استقر بها طويلا . .

وخلال رحلاته تلك ، اصطفى من المفتونين به أنصاراً وحواريّين ، أطلقهم هم الآخرين ليطوّحوا بفتنته فى الآفاق . ورسم لهم منهجهم فى هذه الكلمات :

« تظاهروا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، تستميلوا الناس إليكم . . وابدأوا بالطعن فى أمرائكم . . وقولوا للناس إن « عثمان » قد أخذ الخلافة بغير حق . . وإن « علياً » وَصِىُّ رسول الله ، فانهضوا ورُدُّوا الحق إلى صاحبه » . . ! !

ومن عَجب أن الفتنة الضارية التى تمادت حتى مقتل عثمان رضى الله عنه ، سارت وَفق هذه الوصايا الثلاث .

فأولا : لَبِس المحرضون عليها والمسهمون فيها مُسوح الرهبان ، ورفعوا فى أيْمانهم شعار الأمر بالمعروف وتغيير المنكر . . ! !

وثانياً : راحوا يطعنون فى الأمراء والولاة ، ويُجسِّمون أخطاءهم ويَدْحضون وُجودهم . . ! !

وثالثاً : رفعت الفتنة رأسها ، لتواجه الخليفة مباشرة ، وتطالبه بضرورة التنحِّى والاعتزال . . ! !

ولقد كانت هناك عوامل كثيرة أحسن ابن سبأ ودعاتُه استغلالها ، ومكّنت لدعوته بين أعداد كبيرة من الناس فى الكوفة ، والبصرة ، ومصر . وكان من بين تلك العوامل ، بل على رأسها سلوك بعض المسئولين والولاة من الأمويين .

وفى تقديرنا أن دور هؤلاء فى مضاعفات الفتنة ، لا يتمثل فى أخطائهم التى كان يمكن إصلاحهم وتلافيها . بقدر ما يتمثل فى تجاهلهم صيحات النذير ، وفى استجابتهم لنداء الغرور المستَعْلِى ، والكبرياء المتحدِّية ، ثم فى مقامرتهم بمصير الخليفة ذاته فى سبيل أهواء كان فى استطاعتهم كبحُها ، دون أن يعود عليهم هذا الكبْح بخسران أىِّ خُسران . .

فموقف « معاوية » عامل الخليفة على الشام يومئذ من وفد المعارضة لم يكن فى مستوى مسئولياته ، ولا فى مستوى ما عرف عنه من قدرة على الحلم والدهاء .

لقد نَهرَهُم بكلمات شدَّت فيهم زناد المَوْجِدة والغيظ ، حين قال لهم :

« بلغنى أنكم تَنقِمُون قريشاً ، وإن قريشاً لولاها لَعُدْتُم كما كنتم أذِلّة . . إن الله بنى هذا المُلك على قريش ، وجعل هذه الخلافة فيها ، ولا يصلح ذلك إلاَّ لها » .

ثم تمادى — عفا الله عنه — فى عصبيته هذه فقال :

— « وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمَها وابن أكرمِها ، إلا ما جعل الله لنبيه » . . ! !

و «سعيد بن العاص» ، عامل الخليفة على الكوفة ، يجلس وسط الناس وقد أسكَرَتْه السُّلْطة ، ويلوِّح بيمناه صوب أرض العراق التى تهتز خضرة ، وزرعاً ، وغراساً . ثم يقول :

— « إنما هذا السَّواد بستانٌ لقريش » . . ! !

خلفاء الإسلام ، ومَنْ لقَّبه الرسول بـ « ذى النوريْن » وقال عنه : [.. ورفيق فى الجنة عثمان] .. ؟

وهل على قَلوص جرباء ، يريد جبَلة بن عمرو وعصابته ، أن يحملوا الخليفة الطاهر الذى جهّز جيش العسرة بألف بعير وفرس ، لم يكن فيها جرباء ولا عرْجاء .. ؟ !

إننا الآن وبعد ألف وأربعمائة عام ، ولا تصلنا بتلك الوقائع سوى الكلمات المسطورة فى كتب التاريخ ، ليأخذنا غيظ مرير من أمثال تلك المجابهة المتهورة .. فكيف إذن كانت مشاعر الذين يشهدون بأعينهم ، ويسمعون بآذانهم ، ويبصرون الخليفة فى جلال مَشيبه يتعرض لمثل تلك المِحَن والجهالات والشرور .. ؟ وكيف كانت مشاعر الخليفة ذاته .. ؟ !

على أنه إذا كان فى الواقعة التى ذكرناها ما يثير الغيظ والأسَى ، فلنعلم أنها كانت أخفَّ ما تعرض له الخليفة يومئـذ ، إذا هى قِيسَتْ بوقائع أخرى كثيرة تحـدى بهـا المغامِرُون سلطان الخلافة وكرامَتهـا .

أجل ، سلطان الخلافة وكرامتها .. فالخلافة لا الخليفة ، والدولة لا رئيسها - كانت هى الهدف الذى عمل له المتآمرون طويلا ..

وهذه « السنوات الصعبة » لم يكن « عثمان » رضى الله عنه هو الذى خلع عليها هذا الوصف .. بل هى التى فرضت عليه وعلى الدولة كلها صعوبتها ، ومَشاقَّها ، وأخطارها ، وذلك بما كان يُدَّخر لها من فِتَن طال من قبلُ أمَدُ تَبْييتها ..

خلفاء الإسلام ، ومَنْ لقَّبه الرسول بـ « ذى النوريْن » وقال عنه : [.. ورفيق فى الجنة عثمان] .. ؟

وهل على قَلوص جرباء ، يريد جبَلة بن عمرو وعصابته ، أن يحملوا الخليفة الطاهر الذى جهّز جيش العسرة بألف بعير وفرس ، لم يكن فيها جرباء ولا عرْجاء .. ؟ !

إننا الآن وبعد ألف وأربعمائة عام ، ولا تصلنا بتلك الوقائع سوى الكلمات المسطورة فى كتب التاريخ ، ليأخذنا غيظ مرير من أمثال تلك المجابهة المتهورة .. فكيف إذن كانت مشاعر الذين يشهدون بأعينهم ، ويسمعون بآذانهم ، ويبصرون الخليفة فى جلال مَشيبه يتعرض لمثل تلك المِحَن والجهالات والشرور .. ؟ وكيف كانت مشاعر الخليفة ذاته .. ؟ !

على أنه إذا كان فى الواقعة التى ذكرناها ما يثير الغيظ والأَسَى ، فلنعلم أنها كانت أخفَّ ما تعرض له الخليفة يومئـذ ، إذا هى قِيسَتْ بوقائع أخرى كثيرة تحـدى بهـا المغامِرون سلطان الخلافة وكرامَتهـا .

أجل ، سلطان الخلافة وكرامتها .. فالخلافة لا الخليفة ، والدولة لا رئيسها - كانت هى الهدف الذى عمل له المتآمرون طويلا ..

وهذه « السنوات الصعبة » لم يكن « عثمان » رضى الله عنه هو الذى خلع عليها هذا الوصف .. بل هى التى فرضت عليه وعلى الدولة كلها صعوبتها ، ومَشاقَّها ، وأخطارها ، وذلك بما كان يُدَّخر لها من فِتَن طال من قبلُ أمَدُ تَبْيِيتها ..

بيد أن ذلك كله لن يعفينا من هذا السؤال المحتوم .

– أين كان « الخليفة عثمان » من تلك الأخطاء التى أجاد المتآمرون استغلالها ؟ ؟

* * *

فى استطاعتنا أن نرد تلك المآخذ كلها إلى أربعة أصول :

أولها : عن الولاة . . فقد أخذوا على الخليفة أنه عزل نفراً من الصحابة ووضع مكانهم نفراً من أقربائه الذين لم تكن لهم أو لبعضهم على الأقل سابقة ترفعهم إلى مستوى الولاية على المسلمين .

ثانيها : عن الأموال العامة . . فقد قيل إن الأمويين استغلوا صلتهم وقرابتهم ، فاستحوذوا على ما ليس لهم بحق .

ثالثها : عن موقفه من بعض فضلاء الصحابة . . وعن بعض الإجراءات العنيفة التى اتُّخِذت ضد بعضهم . .

رابعها : عن موقفه من بعض مسائل الدين . . إذ كان له فيها اجتهاد خاص .

* * *

فأما عن الوُلاة ، فمن حق الخليفة أن يختار الرجال الذين يعاونونه على حمل مسئوليات الحكم ، ما دام هذا الاختيار لا يَنجمُ عن هوًى يُناقض أو يناهض القِيمَ الرئيسة للدولة وللمجتمع ، وهى هنا – كتاب الله ، وسنة رسوله .

على أن « عثمان » رضى الله عنه ، وإن يكن التغيير من حقه ،

لم يستعمل هذا الحق مبادئاً . إنما دفعته إليه ظروف الأقاليم التى غيَّر وُلاتها ، وإلحاح أهل تلك الأقاليم بضرورة التغيير .

وأول إقليم ناله التغيير ، كان إقليم الكوفة . وكان واليه « المغيرة ابن شعبة » ولقد رغب أهل الكوفة فى تغييره . . فعزله « عثمان » وولى مكانه « سعد بن أبى وقّاص » . .

وظل « ابن أبى وقّاص » حاكماً للكوفة حتى نشب خلاف كبير بينه وبين « ابن مسعود » الذى كان خازناً لبيت المال فيها ، فعزل الخليفة « سعداً » ووضع مكانه « الوليد بن عقبة » .

وبقى الوليــد بن عقبــة والياً عليها . . وأبلى بلاء مبينــاً فى غزو أذربيجان وأرمينية . . ولكن حين نمى إلى الخليفة أنه يشرب الخمر ، استدعاه إلى المدينة على الفور فأقام عليه الحدّ وعزله ، وولى مكانه « سعيد بن العاص » .

وأما البصرة ، فقد أرسل أهلها وفداً إلى المدينة يطلبون منه عزل واليهم « أبى موسى الأشعرى » فاستجاب لهم . . وولّى مكانه « عبد الله ابن عامر »

وأما مصر ، فقد تكرر إلحاح الوفود القادمة منها إلى المدينة طالبة تنحية « عمرو بن العاص » وتولية آخر مكانه . . فعزله الخليفة عن الحرب والخراج ، وأبقاه على الصلاة ، وولّى « عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح » على الخراج والحرب . . بيد أن الخلاف لم يلبث حتى نشب بينهما ؛ فاستدعى الخليفة « عمرو بن العاص » إلى المدينة ، وتفرد ابن أبى سرح بولاية مصر كلها . .

هكذا كان موقف الخليفة من الـولاة المعزولين . . استجابة سريعة لرغبات المواطنين فى تلك الأقاليم .

فإذا بقى من مآخذ يُناقَش فيها حول هذا الموضوع . . ؟ قيلَ : إنه تخطَّى الصالحين من أصحاب الرسول فلم يولِّهم تلك المناصب الشاغرة ، وادّخرها لأقاربه . . فعبد الله بن سعد بن أبي سرح الذى ولاه مصر ، هو أخوه من الرضاعة . . وعبد الله بن عامر الذى ولاه البصرة ، ابن خاله . . ومعاوية الذى استبقاه على الشام ، ابن عمه . . ومروان ابن الحكم ، الذى أعطاه رئاسة الديوان ، ابن عمه . .

* فأما تخطيه الصالحين الورعين إلى غيرهم ، فقد أجاب الخليفة نفسه عن ذلك ، بأن أمير المؤمنين « عمر » كان يفعل ذلك أحياناً ، لا إهمالا لشأن الصلاح والورع ، ولكن نشداناً للصلاحية والكفاية ، وضربَ الأمثال ببعض الذين اختارهم « عمر » للإمارة ، على حين كان معه فى المدينة من أصحاب الرسول مَن يفوقهم ورعاً وتقوَى .

* وأمّا إيثاره أهلَه الأقربين ، فتلك مسألة لا نتردد فى القول بأنه كان من الخير للخليفة أن ينتهج فيها منهجاً آخر ، مهما تكن كفاية الأقربين وصلاحيتهم .

إن الخليفة — رضى الله عنه — ليذكُر يوم ذهب العباس عمّ النبي عليه السـلام يسأل النبي أن يُوليه إمـارة ، فقال له وهو يذوده عنهـا :

« إنا والله يا عَم ، لا نُولى هـذا الأمر أحداً يسأله ، أو أحداً يحرص عليه » .

ثم أَتْبعَ قوله هذا بنصيحة غالية :

« يا عبـاس ، ياعمّ النبي محمـد .
إيّاك والإمارة ، فإنهـا نِعْمَتِ المرْضِعة .
وبِئْسَت الفاطِمة » . . ! !

وفى تلك السنوات الصعبة بالذات ، حيث اشرأبَّت أعناق الفتنة ، وأخذت العصبية تُرسل فحيحها ، كان من حق الناس على الخليفة أن يجنبهم كل تساؤل يدور حول الأمويين وحول ما يأخذونه لأنفسهم من امتيازات . . لكن هذه القضية لا تقترب من الإنصاف إلا بقدر ما نقترب نحن من الظروف التى كانت تشكل يومئذ وعاء للأحداث كلهـا .

والظروف كما قلنا من قبل ، كانت تُشكّل فتنة عارمة وجامحة تهدف فى التحليل النهائى لأهدافها إلى تقويض الدولة المسلمة التى قوّضت فى بضع سنوات أركان العالم القديم المحيط بها .

والآن وقد أُعِدَّت المؤامرة تماماً ، فإنها تتلمس كل سبب لتوجيه ضربتها الأخيرة إلى معقل الدولة . . الخليفة ذاته . وليكن على رأس تلك الأسباب قضية الوُلاة . .

ولقد كانت نزوة التشهير بالأمراء دَيْدَناً قديماً لبعض الأقاليم ، وكان أمير المؤمنين « عمر » وهو يدعم تجربة الحكم الإسلامى فى سنواتها الأولى يؤثر دائماً أو غالباً أن يضع رغبات المحكومين موضع الاعتبار والتقدير – خاصة فيما يتعلق بتغيير أمرائهم الذين يرغبون فى تغييرهم ،

ولقد رأينا كيف سار الخليفة « عثمان » على نهجه ، فغير أمراء البصرة ، والكوفة ، ومصر ، نزولا على رغبات أهل تلك البلاد .

ولكن المسألة سرعان ما تحوّلت إلى جزء من المخطط المرسوم لتخريب الدولة وتجريدها من سلطانها . ولم يعد الاستسلام لرغبات التشهير والتغيير سوى مظهر لعجز ، سيزيد المتآمرين إغراء وقوة . هنالك لم يكن بُد من زجر تلك المحاولات المغرضة ، ولم يكن للدولة بد من أن تُضفى على موقفها قدراً كبيراً من الحزم والحَسْم .

ولقد وقف الخليفة وقفته الرشيدة التى صورتها كلماته هـذه للمتمردين .

« وأىُّ شىء لى من الأمر ، إذا كُنتُ
كلما كرهتم أميراً عَزَلْتُه . . وكلما رضِيتُم
عن أميرِ وَلَّيْتُه » . . ؟؟ ! !

إن هذا الموقف بصرف النظر عن أى اعتبار آخر ، يشكل فى أيام الفتن والمؤامرات ، الضمان الأهم لحماية الدولة من التفسُّخ والضياع .

فإذا استطاع حفنات من المتمردين ، أن يصدروا أوامرهم للدولة ، ويسلبوها أخصّ حقوقها ؛ فما من سبيل آنئذ لاستبقاء كيانها وكرامتها ، سوى دَحْضِ المشيئة المتمردة والمتطفلة عليها .

* * *

وصحيح أن « عثمان » رضى الله عنه كان من أكثر الناس حباًّ لأهله ، وصِلَةً لِرحمِه .

ولا بد أن هذا الحب المفرط للرَّحم ولذوى القُرْبىَ ، كان

واحـداً من أسباب اختيار هؤلاء الأمراء . . بيـد أنه لم يكن كُلَّ الأسباب .

فالفتنة التى نجحت يومئذ فى زلزلة الثقة المتبادلة من المسلمين وخليفتهم ، وضعت الخليفة فى « مُناخ نفسى » حمله على الْتماس الثقة المفقودة ، عند أقرب الناس إليه وأحناهُم عليه . . فلنضع هذه مِن أسباب إيثارهِ أهله وذوى قُرباه .

كذلك كان هناك التحدى الذى يستهدف شخصه ، ويتنكَّر فى دعوى المناداة بعزل الأمراء الأقربين . . كان هذا التحدِّى بكل ما توسل به من تهجُّم على الخليفة وتمرُّد على مقامه ، سبباً آخر من أسباب تشبُّثه باختياره . .

ثم كانت هناك كفاية أولئك الأمراء . . فعلى أيديهم ، وتحت إمرتهم وقيادتهم ، سارت جيوش المسلمين لتقهر ذلك التمرد المنتشر كالنار فى أنحاء الدولة كلها . . وباستبسال خيار الصحابة الذين اشتركوا فى تلك المعارك ، عادت البلاد الهاربة إلى حظيرة الإسلام ، وتحطمت جيوش « بيزنطة » وجيوش « فارس » وخفقت إلى الأبد رايات الإسلام فى تلك الديار . .

من حق الخليفة إذن أن يعتز ببلائهم هذا ، ومن حقه ألا يجعلهم مضغة فى أفواه المتمردين والمخربين من أعوان « ابن سَبأ » حامل لواء الفتنة وناشر الظلام . .

* * *

وهنا سؤال لابد من طَرْحه حتى نكون أمَناء على الحقيقة التى نقتفى آثارها . .

ذلكم هو : هل كان أولئك الأمراء الذين اختارهم الخليفة من ذوى قُرباه ، هدفاً لسخط المتآمرين المخربين وحدهم ؟ أم أنهم كانوا كذلك موضع سخط نفر من خيار الصحابة وفُضلائهم . . ؟

وماذا كانت أسباب هذا السخط ودواعيه . . ؟ وماذا فعل الخليفة لتفاديه . . ؟

* * *

من المعروف أن عدداً من خيار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانوا ومعهم الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، يرون صالح الأمة والدولة فى تنحية الأمراء الأمويين ، وتنحية مروان بن الحكم الذى كان يشرف على ديوان الخلافة .

وكانت وجهة نظرهم تتمثل فى أن إيثار هؤلاء الأمراء الأمويين بالإدارة يضفى على شكل الحكومة طابع الأثَرَة . . كما أنهم – أى الأمراء – لم يكونوا فى مستوى القدوة التى تفرضها وتتطلبها مناصبهم ، لا سيا فى تلك الآونة التى لا يشد أزر الإسلام فيها شيء مثلما تشده التقوى والإخبات والورع وضربُ الأمثال العالية من أولى الأمر فى التفوق على مغريات الترف ، وزخرف الحياة .

أى أننا نستطيع القول إنه كان هناك يومئذ مؤامرة . . ومعارَضة . .

* مؤامرة : يتولاها ، ويُعِدُّ لها الناقمون على الإسلام كله :

الدين ، والدولة ، والأمَّة . . يهدفون بتآمرهم المتفَشِّى والمسعور ، إلى إنزال ضربات قاصمة بالدين ، وبالدولة ، وبالأمَّة .

* ومُعارضَة : يقوم بها نفرٌ من خيار الصحابة رضوان الله عليهم يهدفون بها إلى تصحيح الخطأ ، وإقرار الصواب فى حدود الكلمة الصادقة ، والنصح الأمين . .

ولئن كانت نفس الخليفة قد امتلأت يقيناً بسوء طويَّة المتآمرين السَّبئيين فى تشهيرهم بوُلاته ، فلا نحسبه قد خالجه الشك لحظة فى سلامة الباعث الذى حدا خيار الصحابة من أمثال « على ، وعمَّار » إلى اتخاذ موقفهم العدائى من أولئك الوُلاة . .

بيد أنه كان يدير خواطره على القضية بطريقة أخرى ، فهو غير مقتنع بوجوب عزلهم لمجرد أنهم من ذوى قُرْباه . . ولا لأنهم تفسَّحوا فى مناعم الحياة . . وهو يريد أن يُدانوا بأخطاء تستوجب عزلهم . وآنئذ يكون حقًّا عليه عزلهم بغير إبطاء .

من أجل ذلك نراه يبادر بإجراء سديد .

فلقد اختار نفراً من الصحابة الذين لا يختلف فى نزاهتهم ، ولا يختلف فى أمانتهم وورَعهم ، اثنان .

اختار « محمد بن مَسْلمة » الذى كان أميرُ المؤمنين « عمر » يأتمنه على محاسبة وُلاته ، والتفتيش على الأقاليم ، وتقصِّى أحوال الناس فى كل بلد .

واختار « عبد الله بن عمر » البقية الصالحة من آل الخطاب ،

والإمام الفقيه الوَرِع الذى عرضت الإمارةُ عليه نفسها أكثر من مرة ، ورفضها فى كل مرة . .

واختار « عمار بن ياسر » المجاهد العظيم المبرور ، بطل الأيام العصيبة فى فجر الإسلام . .

واختار « أسامة بن زيد » الحِبّ ابن الحبّ ، الذى كان الرسول يتهيأ للقاء ربه وهو يقول :

« أَنْفِذوا بَعْثَ أُسامة » . .

اختار هؤلاء على رأس جماعة عهد إليهم السفر إلى الأقاليم والتحقق من مسلك كل وال وأمير .

أليس عملا سديداً ومنهجاً عادلا وحكيماً . . ؟؟ بلى . . فماذا كان جواب أولئك السفراء المبعوثين . . ؟ لقد عادوا جميعاً – عدا عمار بن ياسر – الذى كان قد أُرسل لتقصى الحقيقة فى مصر فطال بها مُكْثُه .

عاد « ابن مَسْلَمة » من الكوفة . .

وعاد « عبد الله بن عمر » من الشام . .

ورجع « أسامة بن زيد » من البصرة . .

وقدموا للخليفة تقاريرهم وما شهدوه وما سمعوه ، فما كان هناك خطأ واحد يستوجب عزل أمير . . ! !

تُرى هل تُعتبر شهادتهم هذه دحضاً لموقف « الإمام على » وإخوانه من أولئك الأمراء . . ؟ ؟

كلا . كما أن موقف الإمام وأصحابه لا يعتبر دحضاً لموقف الخليفة عثمان . . ذلك أن الفريقين متفقان على رعاية حرمات الإسلام .

ولكنهما فى هذه القضية ينظران إليها من زاويتين مختلفتين .

فالإمام وأصحابه يرون ألا حقَّ للطلَقاء فى ولاية أموز المسلمين . . خاصةً أولئك الذين كان لهم قبل إسلامهم وبعد إسلامهم انتكاسات لا تجعلهم للولاية أهلا .

و « الطلَقاء » هم أولئك الذين أسلموا يوم فتح مكة تحت بريق السيوف ، وأشرف الرسول على جموعهم الضارعة المرتجفة وناداهم :

« اذهبوا ؛ فأنتم الطُّلَقَاء »

ومن هؤلاء ، كان أولئك الأمراء الأمويون الذين يدور حولهم الخِلاف .

أما « الخليفة عثمان » فقد كان له فى القضية رأى آخر . . هو أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله . . وأن التوبة تَجُبُّ ما قبلها . .

فأخطاء هؤلاء قبل الإسلام ، قد وضع الإسلام عنهم وزرها .

وأخطاؤهم ، أو أخطاء بعضهم بعد الإسلام ، قد وضعت التوبة عنهم وِزرَها .

وفى رأى الخليفة أنه ما لم يُدَنْ أحدهم باقتراف منكر أو ظلم لِرَعيَّة ، فإن عزله عن الإمارة لا سيما تحت ضغط الفتن المسلّحة التى يقودها جماعة من الموتورين والمخربين ، يصبح أمراً فوق طاقة اقتناعه ، وضميره .

لقد كان الوليد بن عقبة أميراً للكوفة ، وحقق للدولة انتصارات

كبيرة ، ثم هو فى الوقت نفسه من ذوى قُرْبىَ الخليفة . . ومع ذلك كله ، فإنه حين ترامت إليه أنباء احتسائه الخمر لم يمهله يوماً . . بل استدعاه إلى المدينة ، وعزله عن الإمارة . . وأقام عليه الحدَّ جهاراً عَلَنا . . وهذا هو ما لنْ يتأخر عن صُنْعه تِجاه الأمراء الآخرين من ذوى قُرْباه ، إذا أدِين أحدهم بخطأ يستوجب عزلا أو عقاباً .

ذلك فى إيجاز ، كان رأيه فى أزمة الوُلاة . وهو رأى ازداد به اقتناعاً بعد عودة مبعوثيه إلى الأقاليم ، معلنين فى أمانة وصدق أنهم لم يروا مُنكراً ، ولم يشهدوا ظُلما .

ومع ذلك ، فقد بعث كُتُبه إلى الأقاليم جميعاً يقول فيها :

« بلَغنى أن أقواماً منكم يُشْتَمون ،
وآخرين يُضْرَبون ، فمن كانت له
مظلمة فليأتنا فى الموسم ، وليأخذ
بحقه منى أو مِن عُمّالِى عليكم » . .

* * *

وهناك حوار ينقله لنا « ابن كثير » فى كتابه ، قام بين « الإمام على ، والخليفة عثمان » يضع وجهَى نظرهما وجْهاً لوجه ، وبالتالى يغمر القضية بضوء جديد .

ولقد جرى هذا الحوار يوم اختار الناس « علياًّ » كى ينقل إلى الخليفة ما فى أنفسهم من شكاة ومضَض ، وجلس الإمام إلى الخليفة وحدهما ، وبثَّه كل ما فى نفسه ونقل إليه ما فى أنفس الآخرين ،

وكانت كلمات الإمام مُترعَة بحرصه الشديد والنبيل على خير الخليفة وخير الأمة .

وعقب « عثمان » على كلمات « على » قائلا :

« أمَا والله لو كنتَ مكانى ما عنَّفتُك ،
ولا أسْلمتُك ، ولا عِبْتُ عليْك . .

« أتُرانى جئت منكراً إذ وصلْتُ رَحِماً ،
وسدَدْتُ خلّة ، وآويتُ ضائعاً ، ووليّْتُ
شبيهاً بمن كان – عمر – يُوَلِّى . . ؟ ؟

« أناشدك الله يا على . .
هل تعلم أن المغيرة بن شعبة كان والياً
لعمر . ؟

قال على : « نعم . .

قال عثمان : « فَلِمَ أُلامُ إذ ولَّيتُ ابن عامر فى رحمه
وقرابته ، وليس للمغيرة عليه كبير
فضل . . ؟

قال على : « سأخبرك . . إن – عمر كان إذا ولّى أحداً
فإنما يطأ على صِمَاخَيْه ، فإن بلَغه عنه
شىء جاء به وبلغ فى زجره أقْصَى الغاية . .
أمّا أنت فلا تفعل ، فقد ضعفت
ورفقت بأقربائك .

قال عثمان : « هم أقرباؤك أيضاً يا على .

قال على : « نعم .. إن رَحِمَهُم منى لقريبة ؛ ولكن الفضلَ فى غيرهم ..

قال عثمان : « ألم تعلم أن – عمر – ولَّى معاوية طوال عهده وخلافته ، فهل أُلامُ إن أنا ولَّيتُه .. ؟

قال على : « فهل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من « يَرْفأ » غلام عمر .. ؟

قال عثمان : « نعم ؛ كان كذلك ..

قال على : « فها هو ذا يقطع الأمور دونك ، وأنت لا تَنهاه » ...

هذه الفقرة من الحِوار ، ترينا كيف كان هناك اقتناعان يحركان الدولة ، والمعارَضة – كلاً فى اتجاه .. وحين نقول « المعارضة » فإنما نعنى بها المجموعة الخيِّرة من الصحابة وعلى رأسهم ابن أبى طالب ، دون أن نعنى بحال تلك العصابات الأخرى التى كانت تُعد للفتنة الجامحة ، فى أقطار الدولة وأمصارها ، والتى لم تَخْبُ نارها حتى اغتالت الخليفة فى وحشية بالغة .

وفى هذا الحوار نرى فى وضوح تام تصوُّر الخليفة للموقف .

فهو يرى فى موقف المعارضة – حتى برغم سلامته وسداده – معاضدة للآخرين الذين يُبيتون له الشر ويتربصون به الدوائر ؛ فهو لهـذا يقول للإمام على : [لو كنت مكانى ما أسلَمْتُك ، ولا عنَّفتُك] .

ثم هو يرى فى إسناد الولاية إلى نفر من أقاربه ، نوعاً من تألُّفهم

والإحسان إليهم ؛ واستبقاء ولائهم للإسلام ، فضلاً عما أظهروه من كفاءة واقتدار فى الإدارة وفى القتال . . كذلك يرى أنه فى إيثاره ذوى الكفاءة والمقدرة على بعض ذوى الفضل والورَع ، إنما يتأسَّى بما كان يصنعه – أحياناً – أمير المؤمنين عمر . .

وهكذا تشكَّل اقتناع الخليفة تجاه أزمة الولاة واتخذ فيها موقفاً ثابتاً صامداً .

وكان للمعارضة اقتناعها الذى عبرت عنه كلمات الإمام على فى حواره مع الخليفة .

فالإمام يرى أن المطالبة بتنحية هؤلاء الأمراء قضية عادلة .

وأنه إذا وُجد أناس يتخذون من التشيُّع للحق ستارًا يخفون وراءه أغراضاً باطلة – كما تفعل عصابات التمرد والفتنة – فليس معنى ذلك أن يسكت المخلصون للحق عن الجهر به والدعوة إليه .

كذلك يرى « الإمام » أن تقوى الأمير أهم من كفاءته . . وإخلاصه أرجح من ذكائه . . وأنه إذا كان « عمر » قد آثر أحياناً ذوى الذكاء والدهاء والمقدرة ، فلأنه كان يُحكم قبضته على ولاته وأمرائه جميعاً ، بصورة لا تمكن أحدهم من أن يُغمض عينه عن الحق لحظة من ليل أو من نَهار . . أما الآن والخليفة يُدْلِفُ نحو الثمانين ، ثم هو بطبيعة الحال طيِّب ، متسامح ، هادئ الفَوْرة ، مأمون الغضب ، فإن أولئك الأمراء يتصرفون تصرّف من ليس وراءه معقب ، ولا عليه رقيب .

لم يكن « الخليفة » يبرئ ولاته من الخطأ . ولكنه كان يريد أخطاء كبيرة تبرر عزلهم وإبعادهم .

وكان « الإمام » يرى أن نشأتهم وطباعهم وتكوينهم النفسى والعائلى ، لا يجعلانهم أنسب الناس للمناصب التى يتولونها ، وأنهم بهذا ولهذا ، سيتمادون فى الأخطاء ويستمرئونها حتى تبلغ بهم المنزلَق الوعْر والهُوَّة الفاغرة . .

والحق أن الحوادث مضَت نحو غايات مريرة كشفت عن صـــدق فِراسة « الإمام على » وعن ســـداد نَظرته وســـلامة وِجْهَتِهِ[1] .

* * *

وننتقل الآن إلى ثانى المآخذ ، أو ثانية الأزمات التى ثارت ثائرتها حول الخليفة ، وهى خاصة بالأموال العامة .

وبادئ ذى بدء ، نؤكد أن أحداً مَّا من خصومه لم يكن إذا خلا بنفسه لِيُدين ذمَّته بسوء ، حتى أولئك الذين أثاروا الفتنة لوجه الفتنة وائتمروا بدمه وحياته .

لقد كانت طهارة ذمته ، وعظمة نفسه ، وطُهر أخلاقه موضع يقين لا يتطرق إليه شك ولا يقترب منه مغمز .

كل الذى قيل يومئذ وتولَّى المتآمرون تضخيمه ، هو أن الخليفة كان يختَصُّ ذوى قُرباه بمزيد من الأعطيات من بيت المال . . ولقد سرح بهم الخيال السقيم إلى القول إن الخليفة أقْطَع مروان بن الحكم خُمس أفريقية مرة واحدة . . ! !

---

(١) راجع كتاب « فى رحاب على » للمؤلف .

وراح المتآمرون ضد الإسلام وضد الخليفة يُروِّجون الإشاعات الكاذبة الخبيثة حول التصرفات المالية للخليفة .

* فإذا زوَّج ابنه من ابنة الحارث بن الحكم ، وزوَّج ابنته من ابن مروان بن الحكم ، وجهَّزهما – من خالص ماله الذى كان واسعاً ووفيراً من الجاهلية إلى الإسلام ، قالوا إنه جهزهما من بيت مال المسلمين . . ! !

* وإذا اقترض عبد الله بن خالد بن أسد بضعة آلاف من بيت المال وكان من حق المسلمين يومئذ أن يقترضوا من بيت مالهم – قالوا : إن الخليفة منحه إياها بغير حق . . ! !

* وإذا توسَّع فى المراعى التى كانت الدولة منذ عهد « عمر » تحميها لإبل الصدقة ولتنمية الثروة الحيوانية ، أرسل – ابن سبأ – وفداً من ثُوَّار مصر ليتهم الخليفة بأنه إنما فعل ذلك كى يُسَمِّن إبِلَه وماشيته . . ! !

* ولقد حدثَ أن ولَّى « الخليفة » الحارث بن الحكم أمانة سوق المدينة ، واستغلَّ الحارث وظيفته ، فراح يشترى النوَى ويحتكره . . ولم يكد الخليفة يعلم بهذا حتى استدعاه إليه وسفَّهه ثم عزله من فوره . . فهذه أيضاً نسجوا منها اتهاماً . . ! !

* وكانت الأرض البوار التى لا تجد من يزرعها ويستثمرها ، تملأ فجاج الأمصار ، لا سيا فى سواد العراق ، فراح الخليفة يُقطعها نفراً من أثرياء الصحابة الذين يمكنهم ثراؤهم من الإنفاق عليها واستثمارها . وكان هناك مبدأ إسلامى يشجع على هذا التعمير .

« مَن أحيَا أرضاً ميتة فهى له »

فهذه أيضاً نسجوا منها اتهاماً .. ! !

* وكان أمين بيت المال « عبد الله بن أرقم » قد تقدمت به السن ، كما وقع خلاف هادئ بينه وبين الخليفة ، فرأى الخليفة أن يُولى مكانه « زيد بن ثابت » .

هنالك أطلق المرجفون المتمردون قولَتهم بأن الخليفة عزل ابن أرقم ، لأنه عارض إسرافه وتصرُّفاته ..

تُرى لو كان ذلك كذلك ، أفما كان الأجدر بالخليفة أن يختار رجلا غير « زيد بن ثابت » .. ؟

إن « زيداً » هذا ، هو الذى ائتمنه « أبو بكر ، وعمر ، وعثمان » على جمع القرآن ..

وهو الصحابى الجليل الذى كان له فى قلوب المسلمين كافة أعمق مشاعر الاحترام والثقة والتقدير .. وهو بدينِه وبخلقه وبأمانته لا يمكن أن يتحمل أمام ربه مسئولية أى جَنَف أو تقصير ..

هذا هو الرجل الذى ولأه الخليفة بيت المال .

ومع ذلك ، فقد نسجوا من هذه الواقعة اتهاماً ..

* بل لم يخجلوا من أن يزعموا أن الخليفة كان يأخذ من بيت مال المسلمين ليبنى لنفسه ولأهله قصوراً وينشئ ضياعاً .. ! !

* * *

لقد اتخذ المرجفون فى المدينة وفى الأمصار من المسائل المالية موضوعاً خِصْباً لأخيلَتهم التى راحت تنسج الأكاذيب ، وتصنعَ البُهتان .

ولَرُبَّما يقال هنا : لا دخان بغير نار . . وإذا كان أعداء الخليفة قد اتخـذوا من تصرفاته المالية مادة ثَرَّةً للتجريح والإساءة ، أفلا يَشِي ذلك بوجود أخطاء فى تلك التصرفات ، أجاد المرجفون والمتآمرون استغلالها . .

والحق الذى نستخلصه من استكناه الوقائع التاريخية عن ذلك العهد ، أن خصوم الخليفة من أتباع ابن سبأ والمتآمرين معهم ، كانوا فى حملة التشهير بالخليفة لا ينتظرون وجود أخطاء ينسجون منها بهتانهم . . فلقد كانوا مصممين على هذا التشهير وقادرين عليه ولو برئت تصرفات الخليفة المالية من الهَفَوات ، لَمَـا رَضُوا أن يدعوا صفحتها بيضاء من غير سوء .

ولَسْنا ننفى أو نستبعد وقوع أخطاء . . إنما ننفى بيقين كامل أن تكون هذه الأخطاء ناجمة عن أدنى قُصور فى ذمة الخليفة العظيم وأمانته — الأمر الذى أراد المتآمرون أن يَصِلوا إليه . . ! !

كل الذى حدث يومئذ ، وشكَّل بدوره مُناخاً صالحاً لتفريخ الأراجيف ، أن الأموال قد درَّت لِقاحُها ، وكثرت فى أيدى الناس جميعاً ، وكثرت معها المناعم ، واستشْرَى التَرَف ، ولم يكن مع الأمراء الأمويين من الزهـد ولا من الوَرَع ما يصرفهم عن مشاركة النـاس فى تَرَفِهم وتبذُّخِهم ، بل راحوا بحكم نشأتهم يُبالغون فى الترفُّه والاستمتاع .

وكان الخليفة عن اقتناع — لا عن استهانة — لا يرَى بأساً فى أن يستمتع الناس ما شاءوا بمناعم الحياة ، ما داموا لا يأخذون المال من حرام ، ولا ينفقونه فى إثم .

ونحن نسلِّم بداهة أن الخليفة «عثمان» لو سار فى هـذه المسألة على نهج سلفه «عمـر» وكبحَ جِماحَ الأنفس عن الإغراق فى الطيبات المشروعة ، لكان ذلك أسلم . . لا سيّما بالنسبة للوُلاة والأمراء الذين يجب أن يظلوا دائماً قدوة للآخرين فى بساطة العيش والترفُّع عن إغراء النعيم .

ولكنّ سؤالا يفرض نفسه علينا فَرْضاً . . هو : هل كان ذلك ممكناً ، مع رياح التغيير والتطوُّر التى هبَّت على الدولة الواسعة العريضة من الجهات الأربع ، حاملة أُمماً شتَّى . . وحاملة مع تلك الأمم والجماعات ، تقاليد وعادات تضطرم فى موج كالجبال . . ؟؟ ! !

تلك هى القضية . . وفى ضوء هذه الحقيقة قبل سواها يجب أن نبحث عن تفسير مآخذ الإسراف والترف التى أرادوا أن يحمِّلوا الخليفة وحده مسئوليتها .

الخليفة التى تبقى ذمته برغم كل شىء ، كاملة الطُّهر ، ناصعة النقاء .

* * *

والآن ، إلى ثالثة الأزمات . . تلك التى تتمثَّل فى الخلاف الذى شَبَّ أُوارُه بين المعارضة النزيهـة البريئة ، قام بهـا نفَـرٌ من خيـار الصحابة – وبين الخليفة «عثمان» رضى الله عنـه وعنهم أجمعين .

لقد أُخِذ على الخليفة أنه كان له موقف اتَّسمَ بالعنف تِجاه الصحابى الجليل – أبى ذَرٍّ الغِفارِىّ . . والصحابىّ الجليل – عمَّار بن ياسِر . . والصحابى الجليل – عبد الله بن مسعود . .

وإنا لنُجانب الصواب إذا نحن درسنا هذا الخلاف بعيداً عن الإطار العام للأحداث والفتن التى كانت تجتاح الدولة والمجتمع يومذاك .

لقد كان قميناً بكل خلاف فى الرأى يقع بين الخليفة وإخوانه من الصحابة الفضلاء السابقين ، أن يجد حلَّه الموفق السعيد ، لولا ذلك الجو القاتم الذى كان المتآمرون المغرضون قد أفلحوا فى صنعه .

لقد غطَّوْا ضوء النهار بفتنة مظلمة سوداء ، تَدَع الحليم حيران . . ! !

ولقد استغلوا ذلك الخلاف الصادق البرىء ، فى تأريث نارهم التى يُوقِدون .

وصارت النصيحة الأمينة الهادئة التى يقولها صحابى جليل ، تتحول على أفواه المشّائين بِنَمِيم ، إلى قذف وسباب . .

وكلمات العتاب التى يرسلها الخليفة فى أناة ، تتحوَّل على نفس تلك الشفاه المسمومة إلى وعيد وتهديد . .

وليس أشدَّ إيلاماً لنفس الرجل الحَيِىّ المُفْرِط الحياء ولا أدْعَى لغضبه ، من أن يتخذ الناس حياءه سبباً لاستضعافه وللتجرُّؤ عليه .

تلك قضية من قضايا النفس البشرية لا تحتاج إلى برهان .

ولقد كان « عثمان » رضى الله عنه مُفرِط الحياء . . وبدلاً من أن يَصُدّ هذا الحياءُ تهوُّرَ المتآمرين على وقار الخليفة ومكانته ، إذا هم تُجْدِب نفوسهم من كل توقير لهذا الحياء . . ! ! !

هنالك مُلِئَت نفس الخليفة أَلَماً ، وتأجَّجَت غضباً ، وقال للمتمردين قَوْلَته المأثورة :

« ... أمَا والله ، لقد عِبْتُم عَلَىَّ بما
أقْرَرْتُم لابن الخطاب .. ولكنه وَطِئكم
برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكُم
بلسانه ، فَدِنْتُم له على ما أحببْتُم
أو كَرِهْتُم ..

« أمَّا أنا ، فَلِنْتُ لكم ، وأوطَأتُ لكم
كَنَفِى ، وكَفَفْتُ يدى ولسانى عنكم ؛
فاجْتَرأتُمْ علَىّ » ...

إن هذه الكلمات المتفجِّعة ، تكشف عن الجرح الذى أدمى مشاعر الخليفة الحيِّ ، المتسامح ، الوديع ! !

ورجل مثل « عثمان » فى أناته وهدوء سَمْتِه ، لا يتفجّر غضبه فى كلمات كهذه ؛ إلا إذا كان الجُرح قد بلغ من نفسه أعماقها ، وإلا إذا كان شعوره باستخفاف المتآمرين قد جاوز القدرة على الصبر والاحتمال .

وفى جوٍّ نفسِىّ كهذا ؛ فإن مَسَّ الصديق يُدمى البنَان .

ومن هنا لم تكن نفس الخليفة الممتلئة بالجراح ، مهيأة للتجاوُب مع المعارضة التى أثارها رِفاقُه فى الدعوة وفى التضحية وفى صحبة رسول الله منذ الأيام البعيدة الباكرة فى فجر الإسلام .

ولم يكن ذلك منه استنكافاً لكلمة الحق ولا استعلاءً عليها .. إنما كان ذلك ، لأنه رأى المتآمرين يتخذون من معارضة هؤلاء الأصحاب الكرام وقُوداً لفتنتهم المدمِّرة ..

ولسنا نريد بهذا التوضيح أن نشجُب حق الصحابة الأجلاّء فى نقد ما رأوه من خطأ ، فما كان لمثلهم أن يسكت على خطأ . . وإنما أردنا أن نبصر بعينين مفتوحتين طبيعة « المُناخ النفسى » الذى كان يعكس نفسه لا محالة على مشاعر الخليفة وعلى تفكيره .

* * *

والآن نتجه إلى وقائع الخلاف الذى قام بين الخليفة وأولئك الأصحاب . . هـذا الخلاف الذى استغله زعماء الفتنة المسلّحة ، وشكّلوا منه اتهاماً برّروا به مع غيره انتهاكهم حرمة الخلافة ، وحياة الخليفة . .

ونبدأ بالخلاف بين الخليفة وأبى ذرّ ، رضى الله عنهما . .

وأبو ذر الغِفارىّ واحد من أعظم الرُّواد الذين أنجبهم الإسلام[١] .

استخلص من روح الإسلام منهاجاً فى الزهد وفى توزيع الثروات ، ثم راح يبشر به فى تفان رُهبانى عظيم . .

وهو بمنهجه هذا لم يختلف مع الخليفة وحده . بل اختلف كذلك مع بعض الصحابة الآخرين الذين كان لهم من المـال وفـرة ومدَّخَر . .

ذلك أنه كان يرى فى الأموال ودائع الله عند عباده ، استخلفهم فيها ، ولكلٍّ أن يأخذ منها حاجته وضرورتَه ثم لا يزيد . .

كذلك كان يرى أن « محمداً وأصحابه » إنما جاءوا الحياة ، ليعطوا . . لا ليأخذوا . .

ولقد أعطى الرسول الحياة أثمن العطايا وأروعها بما نفحها من هُدًى ، وحقيقة ، ونور ، ثم رفض طوال عمره أن يَعْلَق بيديه شىء

---

(١) راجع كتاب « رجال حول الرسول » المؤلف .

من زخرُفها ونعيمها ، بل مات ودرعه مرهونة فى حفناتِ شعير صنع منها خبزاً يابساً له ولأهل بيته . . ! ! فأصحابه يجب أن يمضوا على ذات النهج حتى يلْقَوْه . .

ولقد مضى على النهج أبو بكر . . ومن بعده عمر . .

والآن يريد أبو ذر أن تكون خلافة « عثمان » امتداداً لأيام الوحى ، وأيام الصديق ، وأيام الفاروق فى زهدها ، وتقشفها ، ونَبذِها كل المغريات حتى المشروع منها والحلال . .

ولقد عاش – كما تنبأ له الرسول – وحده . . ومات وحده . . وسيُبْعَث وحده . .

أما فى الجانب الآخر ، فقد كان أكثر الصحابة لا يرون بأساً – أىَّ بأس – فى الاستمتاع بطيبات الحياة . . فالقرآن يحدِّثهم :

« لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ
جُناحٌ فِيما طَعِمُوا إذا ما اتَّقَوْا وآمَنُوا وعملوا
الصالحات » . .

ويُحدِّثهم :

« قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أخْرَجَ لِعبادِهِ
والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟
« قُلْ هِيَ لِلَّذينَ آمَنُوا فِى الْحَياةِ الدُّنْيا ،
خالِصةً يَوْمَ القِيامَةِ » . .

على أن « أبا ذر » وإن جاز أن يتسامح تِجاه الاستمتاع المعتدل بالطيبات ، فإنه لم يكن ليتسامح لحظة تجاه السَّرَف والتَّرف واحتكار

الضياع ، واكْتناز الأموال .

ومـن ثم ، لم يتردد فى أن يقطع الطريق وَثْباً إلى الشام حينما سمع أنباء ما تموج به من تَرَف ، وما يشق فضاءها من بروج وقصور ، ويغطى أرضها من ضياع وبساتين امتلكها وأخلد إلى نعيمها الأمراء ، وعلى رأسهم معاوية ونفر آخر من الصحابة الذين لم يُخلَقوا فى رأى « أبى ذر » للدَّعَةَ ولا لِنعم الدنيا الفانية . .

وفى الشام رفع لواء معارَضة كادت تعصف بمقعد معاوية . .

راح يتلو على الجماهير هــذه الآية فكأنما يسمعها النــاس لأول مرة :

« والَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيم » .

« يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِى نارِ جَهَنَّمَ ، فتُكْوَى بِها جِباهُهم وجُنُوبُهُمْ ، وظُهُورُهُمْ هٰذا ما كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ ، فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ » .

وحاول « معاوية » أن يُهدِّئَ من ثورته دون جدوى . والحق أنه برغم إحساسه بخطر دعوته عليه ، فإن مسلكه تجاهه ظلَّ مُتَّسماً بإجلاله وتوقيره .

ولقد اكتفى بأن يكتب إلى الخليفة كتاباً يقول فيه :

— [إن أبا ذر أفسد الناس بالشام] ، فجاءه ردّ الخليفة سريعاً

— [أرسِلْه إلَىّ] . .

وعاد « أبو ذر » إلى المدينة – وجرى بينه وبين الخليفة حِوار . لم يقتنع أحدهما فيه بوجهة نظر الآخر .

وهنا نلتقى بروايتين تاريخيتين : إحداهما تقول : إن الخليفة قرر إبعاده إلى « الرَّبَذَة » مكان بعيد عن المدينة . . وأخرى تقول : إن أبا ذر هو الذى طلب من الخليفة أن يأذَن له بالخروج إلى « الرَّبذَة » حيث يقضى بها بقية أيامه . . وسواء صحَّتْ هذه الرواية أو تلك ، فليس ثمة شك فى أن الخليفة كان حريصاً على أن يظل « أبو ذر » إلى جواره بالمدينة قائلا له : [ابْقَ معنا ، تغدو عليك اللِّقــاح وتروح] .

ولكن أبا ذر ، كان يعرف نفسه جيداً ، ويعرف أنه سيظل مرتفع الصيحة ضد الأشياء التى لا يبدو أن الخليفة مستريح لطريقته فى معارضتها .

وهكذا خرج الصحابى الجليل فى هدوء إلى الربذة حيث عاش بها يعبد الله العلى الكبير ، حتى نادته ساعة الرحيل إلى الرفيق الأعلى

على أننا واجدون فى واقعة هذا الخلاف بين الخليفة وأبى ذر مشهداً يعطينا وحده الدليل الحق على أن الخلاف بين الدولة والمعارضة لم يكن مَهْما يستفحل ويتفاقم ليصل بالأحداث إلى ذلك المدى البغيض الأثيم الذى بلغه على أيدى المتآمرين المخرِّبين .

فهذا هو ذا « أبو ذر » رضى الله عنه ، يزوره بـ « الرَّبذَة » بعض متآمرى « الكوفة » ويعرضون عليه أن يتزعم ثورة مسلحة ضد الخليفة ، فإذا هو يجيبهم بهذه الكلمات الزاجرة :

« والله ، لو أن – عثمان – صلَبنى – على

أطول خشبة ، أو أطول جَبل ، لسمعتُ
وأطعت وصبرت واحتَسَبْت ، ورأيت
ذلك خيراً لى . .

« ولو سيَّرنى ما بين الأفُق إلى الأفق ،
لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ،
ورأيت ذلك خيراً لى . .

« ولو رَدَّنى إلى منزلى ، لسمعت وأطعت
وصبرت واحتسبت ، ورأيت ذلك
خيراً لى . . » ! ! !

هكذا كان نوع الخلاف بين الخليفة وبعض أصحابه ، وهكذا كان مَذاقُه . .

وإن استبعاد وجود خلاف على الإطلاق ، لَأَمْرٌ ضِدٌّ طبائع الأشياء .

* * *

والآن نُغادر واقعة الخلاف مع « أبي ذر » إلى مَثيلتها مع « عمار ابن ياسر » . .

و « عمار »[1] صحابى جليل ، استشهد أبواه على خشبة التعذيب الذى أرادت قريش أن تطفئْ به نور الله ، وحمل « عمار » مع أبويه حظه الرهيب من العذاب . كما تلقّى معهما حظه من البشرى الرائعة التى زفّها إليهم الرسول حين ناداهم وهم يُعذَّبون .

« صبراً آل ياسِر »

---

(١) راجع « رجال حول الرسول » للمؤلف .

« فإن موعدكم الجنّة »

لقد اختلف « عمار » مع « الخليفة » حول بعض القضايا ، ولعلّه عالج الخلاف بطريقة أزعجت الخليفة .. ولا سيما فى أواخر عهد « عثمان » حيث كان بعض الولاة الأمويين قد أسرفوا فى قسوتهم على معارضيهم ، غير مفرّقين بين صحابى جليل يجهر بالحق لوجه الحق ، وبين مُغْرِضٍ دخيل ، يريدها فتنة عمياء ..

ولقد كان من الممكن أن يظل الخلاف بين الخليفة وعمار محكوماً بحقوق الصحبة الغالية التى جمعت بينهما فى أيام العسرة وأيام الانتصار .. بل لقد بقى كذلك فعلا برغم المضاعفات التى انتابته بفعل الغليان الذى كانت الأنفس تمور به مَوْراً ، والذى كانت الأحداث والمؤامرات تزيده كل يوم اشتعالا .

ولقد رأينا الخليفة وهو يختار من بين خيار الصحابة مَن سيُشكّلون لجنة تَقَصِّى الحقائق .. رأيناه لا يَنسى « عماراً » .. بل يختاره برغم معارضته له .. ويُرْسله إلى مصر .

ولما عاد مبعوثو الخليفة إلا عماراً الذى طال مكثه بمصر ، وتصادف أن كان بها فى ذلك الوقت « عبد الله بن سبأ » ، وجد الواشون فرصتهم ليوغروا صدر الخليفة على عمار ، زاعمين أنه كان يجتمع بابن سبأ ، ويُصغى إليه.

ولقيت هذه الوشاية مع غيرها دوراً فى تصعيد الخلاف بين الخليفة وعمار .. على أن واقعة الاعتداء على « عمار » كانت أقسى مظاهر هذا الخلاف ، فهل اشترك الخليفة فى هذا الاعتداء كما تزعم بعض الروايات .. ؟

إن « الإمام الطَّبَرِىّ » ينفى ذلك ويدحَضُه ، ويسوق لنا النّبأ على لسان الخليفة نفسه عند ما عوتبَ فى هذا الاعتداء الذى اقترفه بعض موظفى ديوان الخلافة .

قال الخليفة :

« جاء عمار ، وسعد بن أبى وقاص إلى المسجد ، وأرسلا إلىّ : أن ائتنا ؛ فإنا نريد أن نُذاكرك فى أشياء فعلتَها . .

« فأرسلتُ إليهما : إنى عنكما اليوم مشغول فعودًا إلىّ فى يوم آخر . .

« فانصرف سعد ، وأبىَ عمار أن ينصرف ، فأعَدْتُ إليه الرسول فأبى . . ثم أعدتُه فأبىَ . . فتناوله رسولى بالأذى بغير أمرى .

« ووالله ما أمرْته ، ولا رضيتُ بضربه ، وهـذه يدى لعمار ، فلْيَقْتَصَّ منى ما شاء » . . ! !

وكما رأينا « أبا ذَرٍّ » من قبل ، يرفض دعوة متمردى الكوفة ليقود ثورة ضد الخليفة . . نرى الآن لعمار موقفاً مماثلاً . . فعند ما حاصر المتمردون المسلحون دار الخليفة ومنعوا عنه المـاء ، غضب « عمار » وصاح فيهم :

« يا سبحان الله . . أتمنعون المـاء عمَّن اشترى بئر رُومة ، ووهبها المسلمين » . . ؟ ؟

ثم سارع إلى « الإمام على » وأنبأه النبأ ، واقترح عليه أن يحمل بنفسه قربة المـاء إلى دار الخليفة ، فلعلَّ الثوار لا يجرأون على اعتراض سبيله . .

إن هذا الموقف بدوْره ، يعطينا الدليل على أن الخلاف بين الخليفة وذلك النفَر الكريم من الصحابة ، ما كان لِيطغَى على جلال الصُّحْبَة التى جمعتهم فى الله إخواناً . .

* * *

على أن الخلاف الذى شابَهُ كثير من الجفوة ، ورأينا الخليفة يلجأ فيه – على غير عادته – إلى إجراء عنيف – كان الخلافَ الذى شَجر بينه وبين « عبد الله بن مسعود » و « عبد الله »[1] صحابى رائع فى تضحياته ، واستبسالَه ، وفى صحبتـه لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد تفاقَم الخِلاف بين الخليفة وبينه ، حتى قطع الخليفة عنه راتبه من بيت المال . . وعلى الرغم من أن إجراء كهذا لا يتَّسِقُ بحال مع طيبة قلب الخليفة ، وسَماحة نفسه ، إلا أنه فيما أفْضَى إليه من مواقف ، لم يعدم هذه الطيبة ، وهذه السماحة . .

ذلك أن الخليفة لا يكاد يعلم بمرض « ابن مسعود » – ذلك المرض الذى لقى فيه ربه ، حتى يَغشَى ضميره ندمٌ عظيم . . ويخرج إلى دار « عبد الله » متوكئاً على شيخوخته المجْهدَة الوهْنانة . . ثم يمعن فى الاعتذار لابن مسعود ، ويرجوه فى إلحاح أن يغفر له ما كان منه . . ثم يذهب

---

(١) راجع « رجال حول الرسول » للمؤلف .

إلى دار « أم حبيبة » رضى الله عنها ويرجوها أن تشفع له عند « ابن مسعود » كى يصفح عنه ويغفر له .

وبعد أن مات « ابن مسعود » ودُفِن ، دُون أن يُخبروا الخليفة بذلك خرج حزيناً إلى قبره ، ووقف عليه ، ورثاه قائلا ، ودموعه تنحدر من مآقيه :

« دَفنْتم والله خيرَ مَن بَقِى من أصحاب رسول الله » . . !

وكما حدَث من « أبى ذر وعمار بن يَاسِر » حين رفَضا أن يستغل المتمردون خلافهما مع الخليفة ، حدث موقف شبيه من « عبد الله ابن مسعود » . . ففى مَرض موته عادَهُ بعض أولئك ، وتهدَّدوا الخليفة فى حديثهم معه بالموت . فزجرهم « ابن مسعود » وقال :

« أمَا إنكم إن قتلتموه ، لن تُصيبوا مِثله » .

* * *

هكذا كان الخلاف بينهم مهما تضطرم مَوْجاتُه ، لا يلبث أن يقهر حِدَّته ولاؤهم للصحبة الجليلة التى أنشأها بينهم دين الله وصحبة رسوله . .

فالخليفة حين يخطئ فى حق أحدهم يعتذر . .

وهم يرفضون أن تُستغل خلافاتهم وقوداً لأطماع المتآمرين . .

ولو أن الولاة الأمويين تفوَّقوا يومئذ على دواعى الغِلْظَة فى أنفسهم وفى مسلكهم ، لو فَّروا على الخليفة الكثير من المتاعب . . ولكن كثيراً منهم كانوا يزيدون النار بقسوتهم ضِراماً ، لا سيما فى أواخر عهد « عثمان » ،

عندما رأوا نطاق الفتنة يتسع من حولهم وتُوشك أن تلتهمهم نارها .

وحينما كان ضغط الأحداث يضطر الخليفة لأن يتجهَّم لبعض الأصحاب ، فلأنه كان قد دخل مرحلة حَرِجة ، صار شغله الشاغل فيها المحافظة على هيبة الدولة فى أفئدة الناس . .

ولعلّه كان يرى فى تجَهُّمِهِ لنفر من زُعماء الصحابة وخيارهم زاجراً للآخرين الذين ليس لهم فى ضمير الخليفة ولا فى نفسه معشار ما للصحابة من مودة واحترام . .

ولعلّه كذلك حين طلب من « الإمام على » كرم الله وجهه أن يغادر المدينة إلى مكان قريب منها ، إنما كان يهدف إلى إقرار هذا الأمر دون سواه . وإلا فما كان الخليفة يستغنى قط عن مشورة الإمام ونجدته . ولقد كان كلما حزَبَتْه الأمور يستنجد به ، ويُقاسِمُه أعباءها وأخطارَها . .

كذلك ، لابد من أن نذكر فى هذا المقام حرص الخليفة الشديد على ألا ينشب بين المسلمين قتال يكون هو سبباً له ، أو طرَفاً فيه .

ولقد مرت بنا كلمته للمغيرة بن شُعْبة حين أشار عليه بقتل المتمردين :

« . . لا والله ، لا أكون أول من يخلُفُ
الرسول فى أمّته بسفك الدماء »

فخليفة تتأجّج من حوله الفتن والمؤامرات التى تحوّلت إلى عصيان مسلح خبيثِ الأهداف ، وهو لا يريد مهما تكن العواقب أن يُواجه هذا التمرد بقوة السيف مكتفياً بالزجر والتهديد . . ومع مَن ؟ ؟ مع أناس

يَسْلُقُونه بألْسِنةٍ حداد ، ويُحرّضون على خَلْع طاعته وقتله ، ويُضمرون للإسلام كل شر وسوء .

أَيعقل أن يقف مسلكه مع هؤلاء عند حدود الزجر والتأنيب ، ثم يسمح له ضميره وخلُقه بالإساءة لصحابة أجلاًء ، وناصحين أمَناء ، من طراز [عَلِيٍّ ، وعمار ، وأبي ذر ، وابن مسعود] . . ؟ ؟

* * *

لم يكتف المتمردون الخوارج بتلك الاتهامات الباطلة التى راحوا يشغبون بها على الخليفة ، والتى سردناها على الصفحات السالفة وفنّدناها . فراحوا يُرجفون بأن « الخليفة » يبتدع فى الدين بدَعاً لم تكن على عهد رسول الله ، ولا فى عهد صَاحِبَيْه .

وهذا هو المأخذ الرابع والأخير فى تلك المآخذ التى نناقشها .

لقد راحوا يتصيَّدون للخليفة الراشـــد ، ما حَسِبوه بسوء تدبيرهم وخيبة فألِهم طعناً سينال من ورع الخليفة وحُسْن طاعته لله ولرسوله .

* قالوا : إن الخليفة وحّد المصاحف كلها فى مصحف واحد ، وجمع المصاحف الأخرى وأحرق أوراقها . . ولقد فصَّلْنا هذا الأمر من قبل ، وشرحْنا أسبابه ودواعيه ، ثم إنها خطوة باركها جميع الصحابة حتى الذين كانوا على خلاف مع الخليفة فى مسائل أخرى . .

* وقالوا : إن الخليفة أتمَّ الصلاة بمكة فى أثناء حجه ، وكان الرسول وصاحباه يَقْصُرون الصلاة .

وهذه وحدها كافية فى الكشف عن حقيقة البواعث الشريرة الفاسدة التى كانت تُحرّك أولئك الخارجين ، وكيف كانوا يتصيدون الوهم

لينسجوا منه اتهاماً يحملون العامَّة به على مهاجمة الخليفة والسُّلْطة . .
فَقَصْرُ الصلاة فى السفَر رُخْصَةَ لا واجب ، وإذا تخطى المسلم الرخصة إلى العزيمة ، فلا تثريب عليه ولا حرج . وحتى حين نأخذ برأى الذين يُوجبون القصر فى السفر .

فإن الإمام عليًّا كرم الله وجهه ، — فيما يُروَى عنه — قد أجاب عن هذا المأخذ المغرض ، وهو يحاور المتمردين ، فقال : [إن الخليفة كان قد تأهَّل بمكة ونوى الإقامة بها ، فأتمّ صلاته] .

* وقالوا : إن الخليفة لم يُقِم حدّ القتل على « عُبَيْدِ الله ابن عمر » . .

وكان « عبيد الله » قد انطلق فى ثورة غضبه لمقتل والده أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » فقتل طفلةً لأبى لؤلؤة . . المجوسى المجرم الذى اغتال أمير المؤمنين ، كما قتل الهرمزان بعد أن شاع نبأ تآمره مع أبى لؤلؤة . .

وصحيح أن الشريعة الإسلامية كانت توجب القصاص ، ولكن الخليفة اجتهد فى القضية اجتهاداً كان مبعثه تقديره للظروف التى دفعت ابن أمير المؤمنين عمر للثأر لأبيه ، وللإسلام . . كما أنه لم يشأ أن يجمع على آل الخطاب حُزْنين وكارثتين — الأولى : مقتل « عمر » غدراً . . والثانية : قَتل ولده قصاصاً . . ثم إنه لم يطلق سراح « عبيد الله » مُهدِراً بذلك الدم الذى أراقه . . بل استبدل الدية بالقصاص ، ودفع لأولياء الدم دِيَةً سَخِيَّة ، وكبيرة . .

وقالوا : إن الخليفة ردَّ إلى المدينة الحكم بن أبى العاص ، وكان

الرسول صلى الله عليه وسلم قد نفاه منها . .

ولقد أجاب الخليفة عن هذا ، بأنــه كان قد شفع له عند رسول الله ووعده الرسول بالعفو عنه بعد حين . . ثم إن الخليفة لم يردَّه إلى المدينة إلا بعد أن زالت أسباب نفيه ، إذ كان قد أقلع وتاب عمًّا كان قد استحق من أجله عقوبة النفى . .

وقالوا . . ثم قالوا . . ولم يشبعوا قولا ، ولم يَعدِموا كذباً ولا بُهتاناً ، ينسجون منه خيوط مؤامرتهم الوبيلة . . منتهزين فرصة أى معارضة نزيهة يقوم بهـا صحابىٌّ ناصِحٌ أمِين ، لِيُضخِّموها بوسائلهم ، وليتوسَّلوا بها إلى باطلهم .

* * *

على أن الخليفة رضى الله عنه أمام المعارضة الشريفة التى واجه بها أصحابُه بعض قراراته ، لم يقف موقف المستعلى على الرأى ، ولا المُستَنكِفِ عن الحق[١] ، بل وقف على ملأ من المسلمين فى يوم الجمعة ، يعترف بالأخطاء التى وقعت ، ويرفع ضراعَتَه إلى الله مستغفراً وتائباً . . باكياً ومُبْكِياً جميع الذين كانوا هناك يستمعون إليه ويُنصتون . .

* * *

وأمام موقفه هذا ، تبددت الموجة الأولى من الهجوم على المدينة . ذلك الهجوم الذى كان المتمردون قد انطلقوا به من مصر ، حيث كان « ابن سبأ » قابعاً ومُقيماً ، يُفرِّخ ويَبيض . . ! !

الفصل الخامس

ضيف الجنّة الشهيد

سارت « المعارضة » فى طريقها ، تِلح على التغيير والتَّحول نحو ما تراه أفضلَ وأمثل . . متوسلة بالحِوار الدائب مع الخليفة – هذا الحوار الذى كان يروح بين الرِّفق والحِدَّة ، ولكنه لا يُفسد للإيمان ولا للصحبة قضية . .

وسارت « المؤامرة » فى طريقها ، تريد تقويض الدين والدولة وتتسع لكل الأهواء ، وتستغلّ كافة الظروف ، وتدفع فى طريقها بكل القُوَى المناوئة للخليفة ، متوسلة بالفِرْيَة والتآمر .

* * *

والخليفة « عثمان » رضى الله عنه ، وقد بلغ الثمانين من عمره ، لا تزال خِصاله وفضائله غَضّةً فَتِيَّـة ، تقـوده على طريق اقتنـاعه ومبـادئه . .

فهو يكره سفك الدماء ، وينأى عن القسوة ، ومن ثمَّ ، راح يحاول

ثم يحاول أن يحسر المدَّ المتآمر بالرفق تارة وبالزجر تارة أخرى . . فلا الرفق أغْنى ، ولا الزجر أفاد . . ! !

هنالك ، سيطر على رُوع الخليفة واجب ، بَدا له يومئذ أنه أهم الواجبات وأقدسها . . ذلكم هو : المحافظة الكاملة على هيبة الدولة وسلطانها . . وعند ما نطالع أنباء تلك الأيام الأخيرة فى حياة الخليفة نكاد نسمع صوت تفكيره وخواطره وهو يدرس القضية والأزمة فى ضوء هذا السؤال : لمن يجب أن تكون السيادة : للدولة أم للفوضى . . ؟؟

وعندما تُواجَه دولة مّا بفتنة مخرِّبة ، وتمرد آبق ، يهدفان إلى هدم كيانها ، ودَحْرِ قِيَمِها ، فإن اعتصام هذه الدولة بكبريائها ، وسلطانها ، يصبح واجبها الأول ومسئوليتها المقدسة .

ولقد أدرك الخليفة ذلك ببصر ثاقب ، وحمل مسئوليته بعزمٍ مجيد ! !

لقد كانت تترامَى إليه أنباء « عبد الله بن سَبَأ » وتحركاته . . كذلك أنباء الذين يُعدون لثورة مسلحة ضد الخليفة ، فى مصر . . وفى البصرة . . وفى الكوفة . . هؤلاء الذين كانت طريقتهم فى التحرش بالدولة تفضح نواياهم ، وتَشِي بأغراضهم المريبة والبعيدة . . أبعد كثيراً مما كانوا يتظاهرون به ويدورون حوله . . ومع ذلك فقد بقى الخليفة مستمسكاً بعُرَى مبادئه ، وفضائله ، ومزاياه .

ولم يكن ثَمَّةَ مظهر لهذا الاستمساك أجلّ ولا أروع ولا أبهَى من تصميمه المطلق على ألا يستخدم القوة فى دَحْر الفتنة ، وإذا

كان لا بد لِدَمٍ أن يُسفك فى ذلك النزاع ، فليكن دَمَه هو .. دون غيره من المسلمين .

هذه صورة باهرة ، ما أكبرَ ما تغيب عن بال الذين يتدارسون تاريخ الخليفة العظيم . ! ! !

لكأنَّها صورة « مَسِيح » آخر .. مُمَجَّد وجليلٍ . يرى الثوار يُحاصرون داره ، شاهرين سيوفهم العاوية .. وتُواتِيه فرص قتالهم وقتلهم ، فيرفضها ، قائلا كلمته الخالدة :

« ما أُحِبّ أن ألقى الله وفى عُنُقى قطرة دمٍ
لامْرِئٍ مُسلم » ! ! !

ثم تواتيه فُرص الخروج من الدار المحاصَرة ، والنجاة من القتلة المتربصين ، فيرفضها معلناً : أنه على موعد فى الجنّة ، مع الرسول وصاحبَيْه .. وأنه يتهيأ الآن للسفر إلى موعده ! ! !

ألاَ مَن شاء أن يبصر الشخصية الباطنة لـ « لعثمان بن عفّان » بكل ما تزخر به من حقيقة وعظمة ، فحسبه هذا الموقف وحده ، دُونَما حاجة إلى سواه ..

ولكن ، ما لَنا نتعجل الحديث ، ونطوى الأحداث .. ؟
فلنعُدْ إلى وراءٍ قليلا ..

* * *

قلنا إن جماعة من المتمردين ، كانوا قد غادروا مصر إلى المدينة ، كما خفَّ إليها وفد من الكوفة ووفد من البصرة .

وهناك تقدموا للخليفة بمطالبهم ، وجرى بينه وبينهم حوار عنيف ،

انتهى بوساطة « الإمام على » ، وبوعد من « الخليفة » أن يستجيب لما هو صواب من مطالبهم ، ثم بِعَهد منهم أن يعودوا إلى بلادهم وأمصارهم فى طاعة وهدوء . .

بعد ذلك ، أرسل الخليفة إلى ولاته على الأمصار حيث شاورهم فى الأمر . . ولو أنهم أخلصوا يومئذ فى معاونته على أمره ، لوضعوا استقالاتهم جميعاً بين يديه ، ولكن موقفهم كان مغايراً . مما جعل الخليفة يتردد فى عزمه . وبخاصَّة أنه وهو يرى نار الفتنة يزداد من حواليْه ضِرَامُها . .

* * *

كان هذا الزحف الأول على عاصمة الخلافة ، نذيراً رهيباً ، وزئيراً عالياً ، لأعاصير زاحفة .

ولكن الخليفة وطّن نفسه ووطّـد عزمه على الصمـود أمام الأخطار . .

لقد اقتنع بأن الأزمة تفاقمت إلى حد ، لم يعد من حقه معه أن يتنازل عن ذرَّة من هيبة الدولة وسلطانها . ومهما يكن هناك من مآخذ وأخطاء ؛ فإن إقرار هـذا السلطان هو الواجب الأول والأهم أمام الفوضى الجارفة التى لم تتمثّل فى التهجم على شخص الخليفة ، ومُجابهته بهُجْر القول وفاحِش السّباب فحسب ، بل تمثلت فى تهديد الدولة بقوة السلاح . .

وتزدحم أمامنا صور الثبات الباهر للخليفة . . نختار منها هذه الصورة :

فعندما انتهت اجتماعاته بأمراء الأمصار ، وتأهبوا للعودة إلى أمصارهم ، عرض معاوية على « الخليفة » أن يصحبه إلى الشام حتى تستقر الأمور .

فرفض الخليفة قائلا :

« لا أختار بجوار رسول الله جـــواراً
سـواه » . . .

وعاد معاوية ، يعرض عليه أن يرسل جيشاً من الشام يرابط بالمدينة ، ويحافظ على حياة الخليفة .

فرفض الخليفة قائلا :

« أخشى أن يَزْحَمُوا المدينة ، وتَضيق بهم
على أصحاب الرسول من المهاجرين
والأنصار » .

وعاد معاوية يقول للخليفة : إذن سيقتالُونَك . .

وكان جواب الخليفة العظيم :

« حَسْبِيَ الله ، ونعم الوكيل »

ثبات عجيب على مبادئه ، وولاء فذ لاقتناعه ! !

وتمضى الأحـــداث سريعة ، لا ترحم النـــاس ولو بقليـــل من البطء . . .

فإن زعماء الأحزاب فى مصر ، وفى البصرة ، وفى الكوفة تكاتبوا واتفقوا على أن تخرج فيالقهم المسلحة إلى المدينة ، حيث يلتقون هناك ليعزلوا الخليفة بقوة السلاح . .

واستيقظت المدينة يوماً على مثل هزيم الرعد ، وعلى منظرٍ رهيب من آلاف الثوار المسلحين . . احتشدوا هناك عند مشارف المدينة ، وأرسلوا وفداً منهم للقاء « الإمام على » الذى لم يكد يعرف نبأهم ، ويرى حشودهم حتى صاح فيهم بكل عزمه وبكل إخلاصه .

= [ارجعوا إلى بلادكم ، لاصبَّحكُم الله] ! !

ولكن الثوار المتمردين ، ظلوا فى مواقعهم وعلى رأسهم زعماؤهم من الأمصار الثلاثة . . والخليفة فى داره يتساءل : ماذا يريدون . . ؟ !

= أن أعزل أمراء الأمصار . . ؟ وماذا ستكون العاقبة ، إذا كانوا كلما كرهوا أميراً عُزِل . .؟ !

= أَأن أسلمهم مروان بن الحكم . ؟ وكيف أسلمهم إياه ليقتلوه ؟ أجَلْ . . ليقتلوه . .

= ثم ماذا سيكون مصير الدولة بكل سلطانها ، وهيبتها ، وكرامتهـا ، إذا هى عَنَتِ اليوم وركَعَتْ أمـام هـؤلاء الثـائرين المتمردين . . ؟ ؟

بيد أن الموقف كان يتطور فى سرعة رهيبة ، حملت الخليفة على أن يستنجد بالإمام على كرّم الله وجهه ، ليُفاوِض الثوار ، وليحملهم على إلْقاء السلاح والرحيل عن مدينة رسول الله وعاصمة الإسلام . . لقد كانت « كرامة الدولة » تشغل باله إلى أبعد مدى . .

ولكى يحافظ على هذه الكرامة ، اشترط لتسوية الأزمة أن يرحل الثوار أولا . .

وبعد ما يعودون إلى بلادهم ، يقوم بعزل « مروان » رئيس ديوان الخلافة ، وعزل أُمراء الأمصار الذين تُلاحقهم شكوى الثائرين .

وأعطى « عليًّا » وعداً صادقاً ، وعهداً وثيقاً بذلك . .

ومن فَوْره ، خرج « الإمام على » إلى خيام المتمردين ومعه « محمد ابن مَسْلَمة » و « سعد بن أبي وقاص » واستطاع « الإمام » أن يقنعهم بالعودة والرحيل باذلاً فى هذا السبيل جُهداً خارقاً ونبيلا .

* * *

ومضت أيام قليلة ، وإذا بالمدينة تُروَّع ذات صباح بالثوار الذين عادوا أدراجهم ، زاحفين على المدينة ليحتلُّوا شوارعها ، وليفرضوا حول دار الخليفة حصاراً رجيماً . . ! !

ماذا حدث . . ؟ وماذا دَهَى الثوار . . ؟ !

لقد خرج إليهم « رسول السلام ، على بن أبي طالب » يسألهم : لماذا نكثوا العهد وعادوا . . ؟ ؟

فنشر زعماء ثوار مصر أمامه كتاباً وقالوا : اعتقَلْنا فى الطريق رجلا أرسله مروان بهذا الكتاب الممهور بخاتم الخليفة ، وفيه أمر لوالى مصر بقتلنا وصَلْبِنا . .

وعاد الإمام يسأل ثوار الكوفة والبصرة : وأنتم ، ما الذى جاء بكم . . ؟ ؟

قالوا : جئنا لِنُصْرَةِ إخواننا المصريين . .

وسألهم الإمام : لكنكم ذهبتم من طريق ، وهم من طريق . . فأنَّى لكم عِلْمُ هذا الكتاب . . ؟ ؟

لكن الوقت لم يكن وقت مناقشة وحِوار :

إنها الفتنة ، قد شُدَّ زنادُها إلى أقصاه ، تنتظر لَمْسة بَنان ، فتقع الكارثة ، وتحلّ الفاجعة . . ! ! تُرى ، ماذا كانت حقيقة ذلك الكِتاب الذى قالوا إنهم ضبطوه . . ؟ ؟

أمَّا أن يكون « الخليفة » هو الذى كتبه ، أو أَمْلاه ، أو عَلِمَ به ، فأمر أبعد من المستحيل . .

لقد أقسم بالله وهو صادق ، أنه ما كتبه ولا أشار بكتابه ، ولا علم من أمره شيئاً . .

ومن غير أن يُقسم – رضوان الله عليه – فما ذلك بخُلُق رجل تحمَّل ألوان الأذى والوقاحات فى سبيل ألاَّ تُراق قطرة دم من مُسلِم ، حتى لو يكون هذا المسلم أحد أولئك الذين ثَلَمُوا إسلامهم بالتآمر والعصيان ! ! !

إذن ، من الذى يحمل وزر هذا الكتاب ؟

إنه أحد اثنين :

إمَّا « نَفَرٌ » من زعماء الثوار . . وإمَّا « مَروان » .

أمَّا الأولون ، فلأن لهم سابقة فى مثل هذا التزوير ، فحين عزموا أمرهم على الخروج من مصر ومن الكوفة ، ومن البصرة إلى المدينة ، دبَّر بعض زعمائهم حيلة يحملون بها أكبر عدد من المسلمين على الخروج معهم – فزوَّروا كتباً على لسان « أم المؤمنين عائشة » وعلى لسان « طلحة » و « الزبير » يدْعُون المسلمين فيها إلى الزحف على المدينة

لقتال « عثمان » . . ولم تُعرف حقيقة هذه الخدعة الكاذبة الخاطئة ، إلا بعد وقوع الواقعة واغتيال الخليفة . .

وهكذا ، لا يبدو غريباً على الظن أن يكون مُزوِّرُو تلك الكُتب ، هم الذين افتعلوا هذه الأكذوبة الجديدة ، وأتقنوا إخراجها . .

فإن لم يكونوا . . فهو إذن « مرْوان » .

ومروان – كما يُعرفنا به التاريخ – لم يكن له من دينه ولا من خُلُقه ، ما يردعُه عن اقتراف مثل ذلك العمل المُزَوَّر .

ولقد طالب الثوار بتسليمه على الفور . . ولكن « الخليفة الرحيم » كان يرى مصيره المحتوم إن هو وقع فى أيديهم . . فرفض تسليمه .

لم يفعل الخليفة ذلك رِضاً بما فعل مروان . . وإنما هى طبيعة رجل لا يُطيق أبداً أن يُسلِّم بيديه إنساناً إلى ساحة القتل والإعدام . . ! !

أليس هو الذى رفض من قبل إعدام « عُبيد الله بن عمر » وكان قصاصاً مشروعاً ، وتحمَّل أمام الله مسئولية استبدال الدِّيَة بالقصاص . . ؟ !

إن رحمته بالآخرين ، وجزَعَه من رؤية الدم المسفوك ، لايدَعانه حتى فى هذه الساعات الرَّهيبة ينجو بحياته ، ويخلص بمصيره . . ! !

* * *

وأخرج الثوار ورقتهم الأخيرة ، ورفعوا عقائرَهم فى جرأة ضارية : [إمَّا اعتزال عثمان ، وإمَّا قتله] . . .

وفى ثبات مذهل ، رفض الخليفة أن يعتزل . . لماذا . . ؟ أحِرصاً على مجد المنصب وجاهه . . ؟ ؟

ألا فَلْنسأل طبائع البشر ، مُذ وجد أبو البشر « آدم » حتى يومنا هذا .. أيمكن لرجل جاوز الثمانين ، أن يستبدَّ به طموح تحيط به الأخطار والمهالك على هذا النحو المزَلْزل الرهيب .. ؟؟!!

لقد رفض « عثمان » إذن أن يعتزل ؛ لأنه « رجل مسئوليات » من طراز فريد ..

وهذا خُلُق كان مخبوءاً تحت ستار تواضعه وحيائه ، وما كُنا سنراه متألقاً كرائعة النهار ، إلا فى أزمة كهذه .. ومِحنة كهذه .. وموقف كهذا الموقف الزاخر العظيم .. ؟!

لقد ذكَر وَصِيةً كان الرسول قد أوصاه بها :

« يا عثمان ..

« إذا اللهُ كساك يوماً سربالاً ، وأرادك المنافقون على خَلْعه ، فلا تخلَعْه لظالم » ..

ولقد كساه الله « سِربالَ الخلافة » ..

وهاهم أولاء المتمردون الظالمون ، يريدون بقوة السلاح الأثيم فى أيديهم ، أن يُكرِهوه على خَلْعِه ..

أفيَرْضَخُ لهم .. ؟؟

أفيُسلم مصاير الإسلام ، وكرامة الدولة ، لعصابةٍ مفتونة .. ؟؟ لا ..

ولكى يستوثق من سلامة موقفه وسداده ، أرسل إلى رجل من خيار أصحاب الرسول يستشيره ، ذلكم هو .. « عبد الله بن عمر » رضى الله عنه ..

ولْنُصْغِ لـ « نافع » مَوْلى « ابن عمر » ، ينقل إلينا الحوار الذى دار بين الخليفة ، وعبد الله . .

الخليفة : إن هؤلاء القوم يريدون خلعى . فإن أجبْتُهم تركونى ، وأن أبيتُ قتلونى فماذا ترى . . ؟

ابن عمر : أرأيت إن خلعت نفسك ، تبقى فى الدنيا مُخلَّداً . .

الخليفة : لا . .

ابن عمر : أرأيت إن لم تخلَع نفسك ، هل يزيدون على قتلك شيئاً . . ؟ ؟ هل يملكون الجنة والنار . . ؟ ؟

الخليفة : لا . .

ابن عمر : إذن ، فلا تَسُنَّ هذه السنة فى الإسلام ، ولا تخلع قميصاً ألْبَسكهُ الله . .

وإنا لنكاد نرى الفرحة تترقرق فى مُحَيَّا الخليفة ، وهو يستمع لهذه الكلمات ، يشدُّ أزْرَه بها صحابى جليل مثل « عبد الله ابن عمر » . . ! ! !

ولكنه إذا كان قد وَطد عزمه على التضحية بحياته فى سبيل كرامة الدولة وكيانها ، فإنه لم يتقاعس عن بذل كل جهد مستطاع لإقناع المتمردين بإلقاء سلاحهم ، والتخلى عن إباقِهم . .

وفى ذلك ، كان يلجأ إلى الإمام على كرم الله وجهه كثيراً بل دائماً . .

والحق أن « الإمام » تَحمَّل فى تلك الفتن فوق طاقته . . وكانت الرياح الهُوج التى يثيرها المتمردون من جانب ، ومروان من جانب

آخر ، تتحدَّى زورقه المستبسل الوديع ، وتعصف بمحاولاته النبيلة . .
بيد أنه لم ييأس ، وظلَّ يُغالب العاصفة ، ويغُطِّى بحواره المقنع زئيرها ،
ولكن الفتنة كانت قد جاوزت كل حدود التعقل ، واحتلَّت أعصاباً
متوترة إلى أقصى درجات التوتُّر ، فلم يعد للحكمة ولا للإقناع مكان .

وحين يبلغ القلق العصبي ذروته القُصْوى ، فإن أصحابه يتخففون
من أعبائه المرهقة بمواجهة الأخطار التى أثارته وكانت سبباً له .

وهذا هو الذى حدث فى نهاية المطاف .

لقد أحْكم المتمردون حصارهم القاسى حول دار الخليفة ، فمنعوه
زُوَّاره . . ومنعوه الماء . . الماء الذى تتفجَّر به « بئر رومة » التى
اشتراها من خالص ماله فى أوائل أيام الهجرة إلى المدينة وجعلها ،
هدية منه للمسلمين ! ! !

ولم يَكْفِ بعض زُعماء الفِتنة ما أنزلوه بالخليفة من أحزان ، حين
توقَّحوا عليه بشتائم بذيئة على مَلأ من الناس . . ! !

ولم يكفهم تهجُّم أحدهم عليه ، وهو فوق منبر رسول الله يتهيأ لإلقاء
خطبة الجمعة . . ! !

لقد غرَّهم حلمُه ، وأغرتْهم مُصَابرته . .

ظنُّوا – وكان ظنَّ السَّوْء – أن وراء هذا الحلم وهذه المصابرة ،
حرص الخليفة على الخلافة ، وعلى الحياة . .

ولم يعلموا ، أو لَعلَّهم علموا وتجاهلوا ، أن وراء حلمه ومصابرته ،
إدراكُه الثاقب للمصير الفاجع الذى سيحيق بالأمة وبالدولة ، إذا هُم
تَسوَّرُوا حُرمات السُّلْطَة ، واغتالوا حياة الخليفة . . ! !

ولقد قال لهم ذلك من قبل :

« . . إن الناس قد أسرعوا إلى الفتنة وطال
عليهم عمرى . .
« أما والله لئن فارقتُهم لَيتَمنَّوْنَ لو أن عمرى
طال فيهم كل يوم بسنَة . . وذلك
مِمَّا يَرَوْن من الدماء المسفوكة » . !

كان إدراكه الثاقب لهذا المصير الذى تحققت عنه نُبوءته ، هو الذى يحمله على المصابرة . . بل على التوسُّل ، كى يتخلى الثوار عن فتنتهم ، ولكن زعماء الفتنة الذين عملوا لها طويلا ، لم يكن يُرضيهم إلا تفجير الأحقاد الناسِفة ؛ لتسقط الدولة كلها كِسَفًا . .

والآن وقد أحكموا قبضتهم على زمام الموقف ، فإنهم راحوا يتهيأون للضربة الأخيرة ، فحاصروا دار الخليفة استعداداً لإنزالها . .

وطال الحصار ، ثم طال . . حتى صار أهل المدينة من طول إيلافهم له يروحون ويغدون ويحيون حياتهم العادية فى رتابتهـــا المـألوفة . .

كانوا جميعاً أقرب إلى اليقين بأن شيئاً مَّا سوف يحدثُ . فتنجلى الأزمة ويرحل الثوار .

لم يكن أحد يتوقع برغم ضراوة التمرد أن يداً ستمتد إلى حياة الخليفة فتغتالها .

* إنه شيخ فى الثمانين من عمره ، بل جاوز الثمانين . .
* وإنه من المؤمنين الأوائل المبكِّرين . .

* وإنه صِهرُ رسول الله . .
* وخليفته . .
* والمبشَّر بالجنة . .
* ومُجهّز جيش العسرة .
* والباذل ماله بغير حساب فى سبيل الله ، ورسوله ، ودينه . .

فَمن ذا الذى لا يرعى كل هذه الحرمات ، ومهما يختلف مع الخليفة فى أمر أو فى أمور . . ؟ ؟

من ذا الذى يحمل فى قلبه مثقال ذَرَّة من إيمان ، ثم يجد التهوُّر الذى يدْفعه لمواجهة « عثمان » بسلاح قاتل رجيم . .

الحق أن اغتيال الخليفة رضوان الله عليه ، كشف تماماً عن حقيقة المؤامرة وحقيقة بعض زعمائها الواغلين . . كما كشف عن تلك الكثرة المخدوعة من الناس الذين لم تكن النوايا الحسنة تنقصهم بَيْد أنهم خُدعوا ، وغُرِّر بهم ، فساروا وراء حفنة من المتربصين بالإسلام سوءًا وأىَّ سوء . . . ! ! !

قلنا : إن القلق العصبي حين يبلغ ذروته القصوى لا يجد أصحابه سبيلا للتخلص منه ، سوى مواجهة المخاوف التى سبَّبته . .

ولقد سارت المجابهة القاسية حتى بلغت هذا المدى ، ولم يعد بُد من أن يتهيأ المسرح لمشهد الخِتام . .

* * *

* فى دار الخليفة كان يَقْبَعُ « مروان » مع نفر من أتباعه المسلَّحين .

* وعلى أبوابها ، ثُلَّة كريمة من الصحابة ، خَفُّوا بسلاحهم لافتداء الخليفة .. فيهم الحسن والحسين ابنا « على » أرسلهما أبوهما العظيم ليحرسا منافذ الدار .. وفيهم عبد الله بن الزبير .. وعبد الله ابن عمر ، وآخرون ..

* وخارج الدار ، وحَوْالَيْها من كل جانب ، صفوف عريضة من الثوار المدَجَّجين ، تَؤُزُّهم أَزًّا عنيفاً تلك الأنباء التى جاءتهم بأن معاوية أرسل قوة من جيش الشام .. وهى على مقربة من المدينة فى الطريق إليها .. ! !

* أما الخليفة ، فقد طلع عليه صباح ذلك اليوم وهو فى عالم آخر ، لا يكاد يعنيه شيء من كل هذه الدنيا القائمة حوله والقاعدة ..

لقد تلقى دعوة إلى الجنة .. وهو اليومَ فى شُغُل بها عن كل شيء عَداها .. !

فى الأمسية السالفة وبعد أن صلَّى من الليل ما صلَّى .. وقرأ من القرآن ما قرأ .. وألقى نفسه بين يدى ربه ضارعاً مبتهلا ، أوَى إلى فراشه ونام .. وفى منامِه رأى الرسول صلى الله عليه وسلم يقول له :

« أَفْطِرْ عندنا غداً ، يا عثمان » ! !

ما أبهجها من كلمات ، بَعَثَتْه فى خَلْقٍ جديد ! ! !

وإنها لَرُؤيا حق ..

و « عثمان » أكثر الناس يقيناً بصدقها ..

وإذن ، فليس أمامه سوى وقت قصير لكى يتهيأ لموعد المصطفى ، ورحلة الخلود . .

سيترك للناس دنياهم . .

وسيدَع للثوار تلك الجدران الأربعة التى يحاصرونها ، مُنطلقاً فى عُرسِه العظيم إلى رحاب الله ، وجوار محمد . . . ! !

أصبح ذلك اليوم صائماً . . فقد كان منذ أسلم يقضى أكثر أيامه فى صيام ، وكل لياليه فى قيام .

ودعا جميع الذين فى داره ، وأمامها ، ممن يحملون السلاح دفاعاً عنه ، أن يُلقوا سلاحهم ، ويغادروا الدار مشكورين ، وفى رعاية الله . .

لكنهم أبَوْا جميعاً أن يتركوا ، مواقعهم حوله ومعه ، لا سِيَّما الحسن ، والحسين ، وابن الزبير ، وابن عمر . .

بيد أن أمر الخليفة وإلحاحَه ، ظلاًّ يهيبان بكل حامل سلاح أن يلقى سلاحه . .

« إن أعظَمكُم عنى غناءً ، رجل كفَّ نفْسَهُ ، وسلاحه .

« أناشدكم الله ، ألا تُهْرقُوا بسببى دماً » . .

وترامى إلى سمعه هرج شديد خارج الدار . فقد أقبل من أهل المدينة ناس كثيرون ، اشتبكوا مع المتمردين ، وراحوا يحاولون إبعادهم عن دار الخليفة . . وأطل الخليفة على الجمع الحاشد من شرفة داره ، ونادى المتمردين بكلمات أخيرة ، أراد أن يبرئ بها ذِمَّته :

« أيها الناس ، لا تقتلونى . .

« فوالله ، لئن قتلتمونى ، لا تتحابُّون بعــدى أبداً . . ولا تُصلُّون جميعاً بعدى أبداً . . »

وعاد إلى حجرته ، فصلى ركعتين . . ثم حمل مصحفه بيديه ، وراح يقرأ . . ويقرأ . . متأنِّقا بين آياته المحكمات ، وروضــاته اليانعات . . ! !

* * *

وضاقت الصدور المكبوتة تحت ضلوع زعماء الفتنة ، وخَشَوْا أن تدور عليهم الدائرة ، فأمروا بمهاجمة الدار . .

لكن الثُّلَّة الطاهرة تحت إمرة الحسن ، والحسين ، وابن الزبير ، وابن عمر . . أبْلَت فى صَدِّهم بلاءً مُعجزاً ، حتى ردتهم عن الأبواب صاغرين . .

هنالك ازداد حقدهم ضراماً . . وركبتهم كل شياطين الجريمة ، فنظروا ، فإذا دار مجاورة لدار الخليفة قريبة المنال ، فقرروا أن يتسوروها ، ويتسلَّلوا إلى مكان الخليفة منها . .

واختاروا من بينهم نفراً يقوم بالمهمة على عَجل ، ونادوا « محمد ابن أبى بكر » لِيصحَبهم . .

وما هى إلا دقائق معدودة ، حتى كانت الخطة قد أنجزت وفجأة رأى الخليفة أمامه أولئك المتسوِّرين ، ورأى « محمد بن أبى بكر » يتقدمهم ، ويُمسك لحية الخليفة بيده ويهزّها متوعداً . .

وفى هدوء القدِّيسين ناداه الخليفة :

« يا ابن أخى . . ! !

« دَعْ لِحيَتى ، فوالله لقد كان أبوك يُكرمها . .
ولو رآك فى مكانك هـذا ، لاستحيا
مما تصنع » . . ! !

ودارت الأرض بمحمد . . وارتدت يده فى خشوع وندم . . ! !

وانطلق مسرعاً خارج الدار يسوق أمامه أولئك الذين كانوا قد تسوَّرُوها معه . .

وعلى بابها الفسيح ، وقف يذود المهاجمين . . !

وجُنَّ جنون ذلك النفر من زعماء الفتنة ، وهزّهم موقف « محمد » هذا ، كما لم يهزّهم موقف آخر . . وتراءى لهم مصيرهم الأسود ، فشدُّوا على الدار المجاورة شدَّة واحدة ، ومن فوق سورها القريب قفزوا كالذئاب الجائعة المسعورة ، واقتحموا على الخليفة خَلْوَتَه :

وكان آنئذ قد بلغ فى تلاوته ، هذه الآية الكريمة :

« الذينَ قال لَهُمُ الناسُ إنَّ الناسَ قد جَمَعُوا
لَكُمْ ، فاخْشَوْهُمْ ، فزادَهُمْ إيماناً ،
وقالُوا حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ » . .

لم يُبال بهم ، ولعله لم يُحس بتقحُّمهم ، فقد كانت غبطةُ روحه ، وأنْسُه بآيات ربه ، وفرحته بمأدبة الجنة التى دُعى إليها .

كان كل ذلك يحجب عنه أشباح الشياطين . .

واستمرَّ فى قراءته . . على حين اندفع الجناة نحوه ليقترفوا جريمتهم البشعة النكراء . .

لم يُقاوم ، ولم يتحرك من مجلسه ، ولم يتخلَّ عن مصحفه . .

ولم يزد على أن قال حين أصابت إحدى ضرباتهم الآثمة كفه فأصابتها فى صميمها :

« والله إنها لأوَّلُ يَد خطَّت المفَصَّل . .
وكتبت آى القرآن » . . ! !

وحين رأى دماءه تتفجر ، فتُضمِّخ أوراقَ المصحف ، طواه حتى لا تطمس الدماء بعض آياته ، ثم ضمَّه وهو يُسْلِمُ الروح إلى صدره .

وحين تمدّد جثمانه الطهور ساكناً سُكون الموت ، كان كتابُ الله لَصيقَه . . وصَدِيقَه . . !

ومَن أوْلى بذلك منه . . ؟ ؟

أليس هو الذى وحَّده ، وحفظه ، وافْتداه . . ؟ !

* * *

كان الاغتيال الخاطف لحياته قد تمَّ بين العصر والأصيل .

وإذن ، فأمامَ روحه وقتٌ كاف لبلوغ موعدها على مائدة الإفطار ، فى الجنة ، عند الغروب . . ! ! !

فلْتعرُج إلى بارئها . . ولْتذهَب إلى ضيافته فى حُبور عظيم .

إن رسول الله هناك ينتظر على شوق . . وينتظر معه صاحباه ، الصدِّيق ، والفاروق . .

لقد تعِب «عثمان» طويلا ، خلال اثنتى عشرة سنة قضاها فى الخلافة حاملا أعباءها ولواءها . .

ولقد كان همه ألا تسقط الراية من يمينه . . وألا يلقى الله حين يلقاه ، وعلى يديه قطرة واحدة من دماءٍ مُسْلمة . .

أوَقد ظَفِر بمُبْتغاه . . ؟ ؟

أجَل . . كان الظَّفَر حظَّه ، والفوزُ نصيبه . .

فليَبق للأرض جسده ، مُثْخناً دامياً . . أو سليماً مُعافى . .

ذلك أمر لا يعنيه . . ما دامت روحه الطاهرة ، قد فازت بمستقبلها عند الله . .

كتب للمؤلف

١ – من هنا .. نبدأ
٢ – مواطنون .. لا رعايا
٣ – الديمقراطية ، أبداً
٤ – الدين للشعب
٥ – هذا .. أو الطوفان
٦ – لكى لا تحرثوا فى البحر
٧ – لله ، والحرية
٨ – معاً على الطريق – محمد والمسيح
٩ – إنه الإنسان
١٠ – أفكار فى القمة
١١ – نحن البشر
١٢ – إنسانيات محمد
١٣ – الوصايا العشر
١٤ – بين يدى عمر
١٥ – فى البدء كان الكلمة
١٦ – كما تحدث القرآن
١٧ – وجاء أبو بكر
١٨ – مع الضمير الإنسانى فى مسيره ومصيره
١٩ – كما تحدث الرسول
٢٠ – أزمة الحرية فى عالمنا
٢١ – رجال حول الرسول
٢٢ – فى رحاب على
٢٣ – وداعاً . . عثمان
٢٤ – أبناء الرسول فى كربلاء
٢٥ – معجزة الإسلام: عمر بن عبد العزيز
٢٦ – عشرة أيام فى حياة الرسول
٢٧ – والموعد الله

رقم الإيداع		١٩٩١ / ٤١٤٩
الترقيم الدولى	977-02-3296-3	ISBN

١/٩١/١٢٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

.. عن « عثمان بن عفان » ثالث الخلفاء الراشدين .

عن « النبأ العظيم » الذى اختلف الناس فيه ، ولا يزالون مختلفين .. ! !

لقد كُتب على الخليفة العظيم أن يحمل مسئولية الحكم فى ظروف ، ما لها فى جميع التاريخ نظير .. ! ! ذلك أنه حملها فى فترة من الزمان . كانت ختاماً لـ « عصر نبوى » بكل ما فيه من ورع ، وصمود ، وإخبات .. وبداية لـ « عصر إمبراطورى » بكل ما يحمل من مباهج ومخاطر ومغريات .. ! !

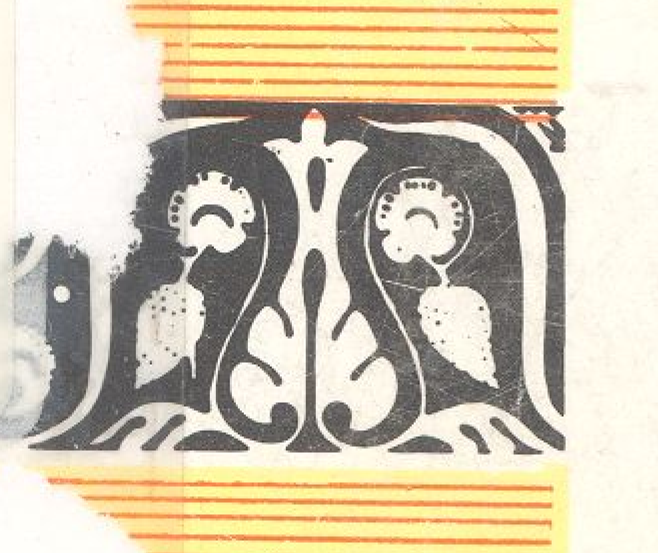
فى هذه الفترة الحرجة ، دعت المقادير « عثمان » ليحمل المسئولية الرهيبة .. مسئولية الإبقاء على روح « عصر النبوة » ، والتفاعل مع « عصر الإمبراطورية » .

فهل وجد إلى ذلك سبيله .. ؟ !

نعم .. وبملء اليقين ، نعم .. وستحدثنا عن ذلك إن شاء الله صفحات هذا الكتاب .

سنرى من أى طراز جليل نادر ، كانت شخصية « عثمان » ..

سنرى رجلاً من أصحاب الرسول وخلفائه العظام . حمل مسئولياته فى عزمٍ مجيد رشيد .. وحين لم يجد ما يحمى به مسئوليته سوى حياته ، جاد بها فى سماح منقطع النظير ..



مـ
٣٥٠